الدكتور/ يوسف خليف

الحب المثالى عند العرب



دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة
عبده غريب

الحب المثالي عند العرب

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

عبده غريب

المركز الرئيسي والمطابع : مدينة العاشر من رمضان

المنطقة الصناعية (C1)

ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز – عمارة برج آمون

الدور الأول – شقة ٦ اسكان إدارى

ت وف : ٢٤٧٤٠٣٨

رقـــم الإيـــداع : ٩٧/٤٦٨٩

الترقيم الدولـــي : I. S. B. N.

977-5810-08-6

الدكتور يوسف خُليف

الحب المثالي عند العرب

الناشر
دار قبـــــاء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدمة

يخطىء من يظن أن الحب العذرى ظاهرة انفردت بها البادية العربية فى العصر الأموى وحده، أو أنه لون من ألوان الحب اختصت بها قبيلة عذرة من بين القبائل العربية كلها. فإن من يتتبع الشعر العربى منذ أقدم عصوره يلاحظ ان هذا اللون من الحب قديم قِدَمَ هذا الشعر، وأن جذور هذا الحب تمتد إلى العصر الجاهلى . فقد عرف المجتمع الجاهلى طائفة من الشعراء العشاق أطلق عليهم الرواة اسم "المتيمين"، وربطوا بين كل واحد منهم وصاحبة له، عُرِف بها، وعاش لها، ومات من أجلها، ووهب حياته وفنه لحبها. ولم تكن حياة هؤلاء المتيمين وشعرهم سوى صورة مماثلة أشد المماثلة لحياة العذريين الأمويين وشعرهم، بحيث يستحيل القول بأن هذا الحب لم يظهر إلا فى أيام بنى أمية. فالحياة الأموية لم تكن هى التى خلقت هذا الحب من عَدَم، أو أوجدته لأول مرة فى تاريخ العرب، ولكنها البادية العربية منذ أقدم عصورها هى التى خلقته وأوجدته، ثم كانت الحياة الأموية هى التى بعثته وجدّدته، ونفخت فيه من روحها فعاد خلقاً جديداً كما خلقتها البادية القديمة أول مرة، ثم مضت تطبعه بطوابعها الإسلامية الجديدة، فاكتملت له سِمَاته المميِّزة، واستقرت تقاليده ومقوّماته التى اكتسب معها صورته الأخيرة وشكله النهائى الثابت فالحب العذرى ليس حباً أموياً، ولا حبًا انفردت به عذرة وحدها، ولكنه حب البادية العربية

فى جميع عصورها. فهو نبت صحراوى أصيل، عرفته البادية العربية منذ أقدم عصورها، وظلت ترعاه، وتمد له الأسباب، حتى نما وازدهر فى ظل بنى أمية.

هذه هى الفكرة الأساسية التى أحاول فى هذه الصفحات أن أعرضها، محاولا إزالة وهم مستقر فى أذهان كثير من الباحثين فى الأدب العربى، وتصحيح خطأ شائع فى أبحاثنا الأدبية، وهو أن الحب العذرى ظاهرة أموية خالصة مُنْبَتَّة الصلة تماماً عما قبلها.

ومنذ البداية لستُ مع الذين يذهبون إلى أن هذا الحب دخلته الأسطورة وتعمقته حتى أحالته نتاجاً أسطورياً خالصاً، أو مجموعة من الأقاصيص نسجتها مُخَيِّلة الرواة، وصاغتها أخيلة السُّمار. فهذا وهم آخر يُغْفِل طبيعة البيئة التى ظهر فيها هذا الحب، وطبيعة الحياة الاجتماعية التى خلقته، وما تنطوى عليه من تقاليد ومُثُل وقيم إختصت بها، ويجعل مقياسه للحكم على الظواهر الاجتماعية القديمة حياتنا الحضرية الحديثة التى تختلف تمام الاختلاف عن الحياة البدوية القديمة التى خلقت هذا الحب ورعته.

ولستُ– مع ذلك– أدَّعى أن كل ما وصل إلينا من أخبار هذا الحب صحيح لا شك فيه، ولا أنكر أن قدْراً غير قليل من الأسطورة والخيال دخل هذه الأخبار، تزيداً فى العلم والرواية، وتلبية لحاجات السمر

والإمتاع، واستثارة للتشويق والتطلع، وطلباً للإغراب والإعجاب، ولكن الذى أنكره أشد الإنكار أن تكون الأسطورة قد تعمقت أخبارهذا الحب حتى أحالتها تلك الإحالة المنكرة الغريبة التى أراها- فى وضعها الدقيق- اندفاعاً خلف مذهب الشك فى كل ما يتصل بتراثنا الأدبى القديم، ومبالغة فى الاطمئنان إليه، وتطرفاً فى الأخذ به، وهو مذهب أرى- إنصافاً لهذا التراث الذى يمثل جزءاً من تاريخنا العريق- أن نأخذ به فى شئ غير قليل من الحذر والأناة.

فالإطار العام الذى دارت فيه أحداث قصة الحب العذرى فى فصليها الجاهلى والأموى إطار سليم لم تمسه أيدى الرواة، ولم تعبث بها أخيلتهم، وإنما دخل العبث والتزيد والخيال فىالتفاصيل والحواشى، وحسبنا هذا الإطارالسليم مادة صالحة، وكافية أيضاً، للبحث والدراسة.

وكذلك الشأن فى الشعر الذى حملته إلينا هذا القصة، فإن اختلاط نسبته إلى أصحابه لا يدفعنا إلى رفضه وإهماله، أوإلى اتهامه والشك فيه، لأنه- فى مجموعه- تعبيرصادق عن هذه القصة. وهو- على كل حال- نتاج لمجموعة من الشعراء تشابهت حياتهم فتشابه فنهم ...

د . يوسف خليف

١

في عالم الحب ودنيا العاطفة صورتان طبيعيتان من صور الحب:

حب حسّي يفتن فيه الرجل بالمرأة من حيث هي أنثى تحقق له المتعة واللهو وإرضاء الحواس، فتنةً تدفعه إلى طلب الجنس الآخر في عمومه، لأنه يرى فيه الوسيلة لتحقيق متعته ولهوه وإرضاء حواسه، فالمرأة عنده ليست غاية للحب ولكنها وسيلة إليه، وهو - لهذا - لا يقف حبه عند واحدة يهب لها قلبه وحبه وإخلاصه ووفاءه، ولكنه يتنقل من واحدة إلى واحدة كما تتنقل النحلة من زهرة إلى زهرة طلباً للعطر والرحيق، فهو دائماً ظامئ كلما رَوِيَتْ نفسه من كأس عاوده الظمأ إلى كأس أخرى، وهو في كل مرة لا يطلب من الكأس إلا أن تروى ظمأه، وتبل صداه، وتطفئ ناره، فالكأس نفسها لا تعنيه إلا بقدر ما ينال منها من شراب.

وحب روحي يتعلق فيه العاشق بمحبوبة واحدة، يرى فيها مثله الأعلى الذى يحقق له متعة الروح، ورضا النفس، واستقرار العاطفة، وهو استقرار يجعل فتنته بواحدة تقف عندها آماله، وتتحقق فيها كل أمانيه، فهى الهدف الذى يطلبه، والغاية التى يسعى إليها، والأمل الذى يرتجيه، والمعبود الذى يقضى عمره فى محراب حبه، يوقد له الشموع، ويحرق البخور، مثله مثل الفراشة التى تتهافت على النور ولا تزال تحوّم حوله

حتى تحترق بناره، فالمحبوبة عنده هى الكأس التى يقضى حياته ظامئاً إليها لا يعدوها إلى غيرها، ولا يتجاوزها إلى سواها، لأنه لا يطلب الرىّ فى أى كأس، ولكنه يطلبه فى كأس بعينها هى تلك التى تعجبه وترضيه.

وقد عرف العرب منذ أقدم عصورهم هاتين الصورتين من صور الحب، كما عرفتهما سائر الشعوب، وعملت ظروف البيئة والحضارة والمزاج وما اصطلحت عليه حياتهم الاجتماعية من مُثُل وتقاليد على تلوينهما بألوانها الخاصة، وطبعهما بطوابعها المميِّزة.

وحوالى منتصف القرن الأول للهجرة، بعد أن استقام الأمر لبنى أمية، واستقرت لهم دولتهم الجديدة، تميّزت الصورة الأخيرة من هاتين الصورتين بسمات معينة ، واتخذت لها طابعاً خاصًّا، اكتسبت معها ومعه اسماً جديداً، فُعرفت باسم "الحب العُذْرى" نسبة إلى قبيلة بنى عُذرة. وفى أرجاء البادية العربية ظهر عشاق عُدُّوا النماذج الصحيحة لهذا الحب، والمُثُل العليا له، بكل سِماتِه المميِّزة، وطوابعه الخاصة، فأطلق عليهم اسم "العذريين" نسبة إلى هذا اللون من ألوان الحب.

وبنو عذرة بطن من قُضاعة التى يصل نسبها إلى حِمْير اليمنية أو مَعَدّ العدنانية، على اختلاف بين النسّابين فى ذلك.

وكان بنو عذرة ينزلون فى البادية العربية شمالىّ الحجاز فى منطقة وادى القُرَى وتبوك إلى أيْلة على البحر الأحمر، وهى منطقة على حظ غير قليل من الخصب والاستقرار يسّرته لها بيئتها الطبيعية من ناحية، ووقوعها على الطريق التجارى إلى الشام ومصر من ناحية أخرى.

ومنذ العصر الجاهلى اشتهرت هذه القبيلة بالقوة والمنعة والشرف، وظهر فيها سادة احتفظ تاريخ العرب بأسمائهم فى صفحاته الخالدة، فكان منهم رَزَاح بن ربيعة الذى استنجد به قُصَىّ جد النبى صلى الله عليه وسلم – وكان أخاه لأمه – فى حربه مع خُزَاعة، فأنجده وأعانه حتى أجلاها عن مكة، وغلبها على البيت الحرام، فتولت قريش سدانته. وكان أحد ساداتهم – هَوْذة بن عمرو – يقال له "رب الحجاز" اعترافاً بمكانته ومنزلته بين العرب، وقد مدحه النابغة الذبيانى بإحدى قصائده. وقد استطاع بعض بطونها – بنو حُنّ– أن يهزموا جيش النعمان بن المنذر الذى بعث به ليغزوهم، وذلك بعد أن انضم إليهم بنو ذبيان استجابة لنصيحة شاعرهم الكبير النابغة الذى حاول جاهداً أن يحول بين النعمان وغزوهم، وفى شعر النابغة مدح لهم، وثناء عليهم، وتسجيل لهذا النصر الذى أحرزوه على جيش النعمان، يصفهم فيه بأنهم" منعوا وادى القُرى من عدوهم ".

وفى السنة السابعة للهجرة تم دخولهم فى الإسلام، ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم الله عليه وسلم سيدهم حمزة بن النعمان بن هَوْذة بصدقات قومه، فأقطعه رسول الله رمية سوطه من وادى القرى. ثم توالت مشاركتهم فى غزوات الرسول وفى الفتوح الإسلامية بعد ذلك، فاشتركوا فى السنة التالية لإسلامهم فى قتال الروم فى مُؤْتة، وكان أحد ساداتهم- قُطْبة بن قَتَادة - على ميمنة الجيش، وفى حرب القادسية تولى أحد أبطالهم - خالد بن عَرفطة - الميمنة أيضاً، ولاّه إياها البطل العربى الكبير سعد ابن أبى وقّاص.

عُرفت هذه القبيلة فى أيام بنى أمية بهذا اللون من الحب، ونُسِب إليها، واشتهرت به وبكثرة عشاقها المتيمين الصادقين فى حبهم، المخلصين لمحبوباتهم، الذين يستبد بهم الحب، ويشتد بهم الوجد، ويسيطر عليهم الحرمان، حتى يصل بهم إلى درجة من الضنى والهزال كانت تُفْضى بهم فى أكثر الأحيان إلى الموت، دون أن يغيّر هذا كله من قوة عواطفهم وثباتها ، أو يضعف من إخلاصهم ووفائهم، أو يدفعهم إلى السلو والنسيان. وقديماً قال رجل منهم: "لقد تركت بالحى ثلاثين قد خامرهم السل وما بهم داء إلا الحب"،وسئل آخر: "ممن أنت؟" فقال: "من قوم إذا أحبوا ماتوا "، فقالت جارية سمعته: " عذرى وربِّ الكعبة ".

وليس من اليسير أن نحدد تماماً الأسباب التى جعلت هذه القبيلة تشتهر بهذا اللون من الحب حتى ليصبح ظاهرة اجتماعية تَعرف بها وتُنسب إليها، وإن يكن القدماء قد حاولوا ردّ هذا إلى رقة قلوبهم وجمال نسائهم، وقد سئل أعرابىّ منهم: "ما بال قلوبكم كأنهم قلوب طير تنماث كما ينماث الملح؟ أما تَجَلّدون؟ " فقال: "إنّا لننظر إلى محاجر أعينٍ لا تنظرون إليها "، وقيل لآخر: " ياهذا بحق أقول إنكم أرق الناس قلوباً"، ويقول ابن قتيبة: "والجمال فى عذرة والعشق كثير".

ولكن هذه المحاولات تبدو غير كافية تماماً لتعليل هذه الظاهرة، إذ تظل معها الأسئلة واردة: هل كانت عذرة حقًّا أرق العرب قلوباً وأجملها نساءً؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يدّعى أنها امتازت من بين جميع القبائل العربية بالرقة والجمال؟ وإذا صَحّ هذا الادّعاء فكيف نعلل لظهور هذا الحب فى غيرها من القبائل؟

من المهم أن نلاحظ أولا أن عذرة لم تنفرد وحدها من بين القبائل العربية بهذا اللون من الحب، وإنما ظهر إيضاً فى غيرها من القبائل كقبيلة بنى عامر حيث ظهر مجنون ليلى قيس بن الملوّح، وقبيلة بنى كنانة حيث ظهر قيس بن ذَريح صاحب لبنى. فالمسألة ليست مسألة عذرة وحدها، والحب العذرى ليس وقفاً عليها دون غيرها من القبائل، ولكنه لون من

الحب عرفته البادية العربية مع غيره من ألوان الحب المختلفة اختلافاً مَردُّه الأساسي إلى المزاج الشخصي الذي يدفع بعض الناس إلى اللهو والمجون والتّشرّك في الحب، كما يدفع بعضهم إلى الوفاء والإخلاص والتوحيد فيه، ثم إلى طبيعة الظروف التي تحيط بالعاشق أتدفعه إلى اللهو والعبث أم ترده إلى الطهر والعفاف؟

فالمسألة ليست مسالة عذرة وحدها، ولكنها مسألة المجتمع البدوى العربى في مجموعه، وهذا اللون من الحب هو التعبير العاطفى الطبيعى فى هذا المجتمع، حيث تسيطر تقاليد خاصة ومُثُل معينة على الحياة الاجتماعية فيه ، فتخلق هذا اللون المتميز من ألوان الحب الروحى.

بهذا الخروج بالمسألة من النطاق الضيق الذى تدور فيه نستطيع أن نفهم هذه الظاهرة الفهم الصحيح، ونضع الحب العذرى فى موضعه الطبيعى. فالمسألة ليست مسألة أن " الجمال فى عذرة كثير "، أو أن قلوب أبنائها " كقلوب الطير تنماث كما ينماث الملح"، ولكنها مسألة مجتمع البادية العربية بتقاليده ومُثُلة المسيطرة عليه، فى عذرة وفى غيرعذرة من تلك القبائل التى كانت تنزل فى البادرية العربية فى نجد وفى شمالى الحجاز.

أما انتشار هذه الظاهرة فى عذرة ذلك الانتشار الذى صوّره أحد أبنائها بأنه ترك فى الحى "ثلاثين قد خامرهم السل وما بهم داء

إلا الحـب"، فـلا يمكـن أن يفهـم إلا علـى أسـاس مـن فهـم الظواهـر الاجتماعيـة عامـة، فهـى "عـدوى اجتماعيـة " جعلـت مـن هـذا الحـب بدْعـا بيـن شباب القبيلـة يلعب فيه التقليـد دورًا كبـيرًا يدفـع كـل شـاب إلـى صاحبـة لـه ليُعْرف بهـا كمـا عـرف غيره من شبابها بصاحبـاتهم ، ثـم تتدخـل الظـروف الاجتماعيـة لتطبـع هـذا الحـب بالطـابع العـذرى المعـروف، فالمسـألة - فـى حقيقتهـا- ظـاهرة اجتماعيـة انتشـرت كمـا تنتشـر سـائر الظواهـر الاجتماعيـة علـى أسـاس مـن العـدوى والتقليـد.

أما لماذا نُسب هذا الحب إلى عذرة دون غيرها من القبائل؟ ففى أغلـب الظـن أن السـبب فـى هـذا يرجـع إلـى أنهـا هـى التـى مثّلت هـذه الظـاهرة الاجتماعية أقـوى تمثيـل، لكثرة مَنْ عـرف مـن عشـاقها الذيـن رأى فيهم الرواة المُثُل الكاملة لهذا الحب، والنماذج الدقيقة له. والألسنة المعـبرة عنـه أدق تعبير وأروعه. وخاصة عند جميل بثينة الذى يُعَدّ بحق أروع مثل لـه، وأدقّ نموذج عرفته البادية منه، وأقوى الألسنة تعبيراً عنه، وأشهر من لمع اسمه فى تاريخه. وربما يرجع السبب أيضاً إلى أن أقدم من عرفـه الـرواة من أصحاب هذا الحب فى العصـر الأمـوى، وهـو عُـروة بـن حـزام، كـان عذريًا من قبيلة بنى عذرة.

٢

وتحفل مصادر الأدب العربى بأخبار هؤلاء العذريين وأشعارهم، وهى أخبار تختلط فيها الحقيقة بالأسطورة، والواقع بالخيال، لأنها- لطبيعة موضوعها العاطفى- مادة صالحة للسمر الشهى الممتع الذى يغرى الرواة على التزيد والوضع والاختراع، بحيث تؤلف الحقيقة الواقعية مع ما اختلط بها من تفاصيل خيالية صورةً جميلة مؤثرة تثير المشاعر، وتهز العواطف، وتأسر الأسماع، وتمس أوتار القلوب، وأشعار هؤلاء العذريين تختلط نسبتها إلى أصحابها اختلاطاً بعيد المدى، فما يُنسب لأحدهم يُنسب للآخر، والقصيدة الواحدة يتنازعها شعراؤهم فتُنسب لأكثر من واحد، وذلك لأن موضوع هذه الأشعار جميعاً موضوع واحد، والأفكار التى يعبر عنها أصحابها متشابهة إلى درجة كبيرة. ومع ذلك فإن الباحث يستطيع أن يجرّد هذه الأخبار من الحواشى والتفاصيل التى يكثر فيها عادة الوضع والتزيد، ليصل إلى الحقيقة المجردة الثابتة التى لا يحيط بها شك أو اتهام، كما أنه يستطيع أن ينظر إلى هذا التراث الفنى الضخم من الشعر العذرى المتشابه السّمات على أنه- فى مجموعه- يعبّر عن قصة الحب العذرى الخالدة فى صورتها العامة المجرّدة.

والصورة العامة المجرّدة لهذه القصة تتلخص فى أن شابًّا من عذرة أو من غيرها من القبائل يحب ابنة عم له، وقد يحب فتاة من غير قبيلته، وهو حب تبدأ سطوره الأولى فى المرعى حيث يلتقى الفتيان والفتيات فى أيام الربيع التى تتحول معها البادية المقفرة إلى جنة خضراء تجيش لها عواطف البدو، وتهتز مشاعرهم، وتحوم بها أحلامهم الناعمة الرقيقة، وتحيل لهم الحياة من حولهم خصباً وخيراً واطمئناناً، وتتيح لهم فرص الفراغ والتأمل والحب والغزل. وقد تبدأ هذه السطور الأولى فى مناسبة عابرة يرى فيها العاشق صاحبته مصادفة فيتعلق بها، وأكثر ما تكون هذه المناسبات العابرة فى أثناء السفر حيث يقل الماء الذى يحمله المسافرون فيضطرون إلى الالتجاء إلى أقرب مضرب للخيام يمرون به طلباً للسُّقْيا، فتخرج لهم الفتيات بالماء، وتلتقى النظرات، ثم تمر الأيام لتسجل فى كتاب الحب سطوراً أخرى، نرى فيهاالعاشق وقد اشتد تعلقه بصاحبته، وزاد حبه لها، وارتبطت آماله بها، بل وقفت عندها، لأنه رأى فيها مثله الأعلى الذى كان يرسمه فى خياله، ويتمنى أن ترتبط حياته به، ولكن ظروفاً- قد تكون اجتماعية وقد تكون اقتصادية- تعترض سبيل آماله، وتقف فى طريق أمانيه، لتحول بينه وبين هذا الرباط المقدس الذى يتمناه، وفى بعض الأحيان يتم هذا الرباط المقدس بين العاشقين، ولكن ظروفا تطرأ بعد ذلك فتفرق بينهما على غير إرادة منهما. وعلى الحالين تكون النتيجة واحدة،

فيشتد هيام العاشق، وتزداد حيرته، ويسيطر خيـال صاحبتـه عليـه، ويسـتبد به، حتى يصبح كـل شـئ فـى حياتـه، ثـم مـا يـزال يضغـط علـى أعصابـه المرهفة، والمرهقة أيضاً، حتى تنوء به وتنهار، فإذا هو شبح مضنى هزيل تصطلح عليه الأدواء والعلل والأسقام، أو خيال شارد فى الصحراء تتقاذفـه الفلوات وقد استبدت به الوسـاوس والظنـون والأوهـام، وقـد يقـاوم العاشـق ويتجلد، ويطوى صدره على جراحه، ويضم جوانحه على النار التى تتأجج فى أعماقها، فيقضى بقية عمره على ذكريـات مـاض قُدّر لـه فيـه الشـقاء، وحب كُتب عليه فيه الحرمان، وتتوالى سطور المأسـاة الحزينـة بعد ذلـك، لتكون النهاية التى لا مفر منها، فيخـط المـوت السـطر الأخير فـى المأسـاة، ويسقط البطل شهيد الحب وصريع الحرمان، لتلحق به- بعد حين قد يقصر وقد يطول- صاحبته التى عاشت بعده تسترجع ذكرياتها الحزينة، وتسـتعيد أحزانها الباكية.

فى داخل هذا الإطار العام دارت أحداث قصة الحب العـذرى الحزينـة، وهـى أحـداث كـانت تتشـابه إلـى حـد كبـير رغـم اختـلاف المآسى وتعـدد الأبطال، فالبداية واحدة، والنهاية واحدة، وبينهما أحداث تتشابه، بل تتكـرر أحيانا، كأنما نشاهد عرضاً ثانياً للقصة، أو نقرأ طبعة جديدة لها.

وأقدم قصص هؤلاء العذريين تاريخيًا هى قصة عروة وعفراء[1]، وهما من قبيلة بنى عذرة. أحب عُرْوة بن حزّام ابنة عمه عفراء وهما صبيان، وكان عروة يعيش فى بيت أبيها بعد وفاة أبيه، وربط الحب بين القلبين الصغيرين منذ طفولتهما المبكرة، وشب مع شبابهما. وتمنى عروة أن يتوج الزواج قصة حبهما الطاهرة، فأرسل إلى عمه يخطب إليه عفراء، ووقف المال عقبة فى طريق العاشقين، فقد غالت أسرة عفراء فى المهر، وعجز عروة عن القيام به. وألح عروة على عمه، وصارحه بحب عفراء، فراح يماطله ويمنيه الوعود، ثم طلب إليه أن يضرب فى الأرض لعل الحياة تقبل عليه فيعود بمهر عفراء. وينطلق عروة بحثاً عن المال، ثم يعود بعد حين وقد تيسّر له ما كان يسعى إليه، والأمل يداعب نفسه، ويرسم له مستقبلا سعيداً يجمع بينه وبين عفراء. وفى أرض الوطن يخبره عمه أن عفراء قد ماتت، ويريه قبراً جديداً ويقول له إنه قبرها. وتتحطم آمال عروة، وينهار كل ما كان يبنيه لأيامه المقبلة، وترتبط حياته بهذا القبر، يبثه آلامه، ويندب حظه، ويبكى حبه الضائع ومأساته الحزينة، ويذيب نفسه فوق أحجاره الصُّمّ حسرات ودموعاً. ثم تكون مفاجأة لم يكن يتوقعها، لقد ترامت إليه أنباء بأن عفراء لم تمت، ولكنها تزوجت. فقد قدم أمويّ غنى من الشام فى أثناء غيبته، فنزل بحى عفراء، ورآها فأعجبته،

[1] أدرك عروة الجاهلية، وتوفى سنة ٣٠ للهجرة فلم يدرك العصر الأموى.

فخطبهاإلى أبيها، ثم تم الزواج رغم معارضتها، ورحل بها إلى الشام حيث يقيم. وتثور ثائرة عروة، ويصب جام غضبه على عمه الذى خدعه مرتين: خدعه حين منّاه عفراء، ودفع به إلى آفاق الأرض البعيدة خلف مهرها، ثم خدعه حين لفّق له قصة موتها، وتركه فريسة أحزانه ودموعه، فمضى يهجوه:

فيا عمّ يا ذا الغدر لا زلتَ مُبْتَلًى حليفا لهمٍّ لازم وهوان

غدرتَ وكان الغدر منك سجيّةً فألزمتَ قلبى دائم الخفقان

وأورثتنى غمّا وكرباً وحسرة وأورثتَ عينى دائم الهملان

فلا زلتَ ذا شوق إلى من هَويتَه وقلبك مقسوم بكل مكان

وينطلق عروة إلى الشام، وينزل ضيفاً على زوج عفراء والزوج لا يعرفه بطبيعة الحال، ثم ما يزال يحتال حتى يبعث إليها بخاتمه فى إناء لبن مع جارية لها، وتعرف عفراء أن ضيف زوجها هو حبيبها القديم. ويلتقى العاشقان بعد تلك الأيام الطويلة الحزينة التى باعدت بينهما، ويتذكران ماضيهما السعيد فوق أرض الوطن البعيدة وما فعلت بهما الأيام، وتكون شكوى، وتكون دموع. ويصمم عروة على العودة إلى وطنه حرصاً على سمعة عفراء وكرامتها، واحتراما لزوجها الذى أحسن وفادته وأكرم مثواه. ويرحل عروة بعد أن تزوده عفراء بخمار لها ذكرى حبيبة منها. وفى أرض

عذرة التي شهدت رمالها السطور الأولى من قصة حبه، تكون الأدواء والأسقام في استقباله. وتسوء حال عروة، ويشتد عليه الضنى، ويستبد به الهزال، ويلح عليه الإغماء والخفقان، ويأخذه مرض السل حتى لا يبقى منه شيئا، ويعجز الطب عن علاجه. ولا يجد عروة إلا شعره يفزع إليه ليبثه آلامه وأحزانه، ويصور فيه ما يلح على نفسه من أشواق وحنين، وما يضطرب في جوانحه من أسى ووجد. يقول مرة:

تحمّلتُ من عفراء ما ليس لى به ... ولا للجبال الراسيات يدان
كأنّ قطاة عُلِّقتْ بجناحها ... على كبدى من شدة الخفقان
جعلتُ لعرّاف اليمامة حُكْمَه ... وعراف نجد إن هما شَفيانى
فقالا: نعم نشفى من الداء كله ... وقاما مع العُوّاد يبتدران
فما تركا منْ رُقية يعلمانها ... ولا سُلْوة إلا وقد سقيانى
وما شَفَيا الداء الذى بىَ كله ... ولا ذَخَرا نصحا ولا ألوانى[1]
فقالا: شفاك الله، والله مالنا ... بما ضُمِّنتْ منك الضلوع يدان
فويلى على عفراءَ ويلاً كأنه ... على الصدر والأحشاء حد سنان

ويقول أخرى:

---

[1] ما ألوانى: ما قصرا فى حقى.

فواللـه لا أنسـاك مـا هَبَّـت الصَّبـا وما عقبتها فـى الريـاح جَنُـوبُ
وإنـى لتعرونـى لذكـراك هــزة لهـا بيـن جلـدى والعظـام دبيـب
ومـا هـو إلا أن أراهـا فُجـاءةً فـأبْهَت حتـى مـا أكـاد أجيـب
وأصرَف عن رأيى الذى كنت أرتَئـى وأنسى الذى أعددتُ حين تغيب
حلفـتُ بـرب الراكعيـن لربهـم خشوعاً، وفوق الراكعين قريب
لئـن كـان بـرد المـاء حَـرّان صاديـا إلـىّ حبيبـاً إنهـا لحبيـب

ويقضى عروة أيامه بين أمل عاش لـه ثم ضـاع منـه إلـى الأبـد، وألـم يعيش فيه وقد استقر فى أعماقه إلى الأبد، وبينهما خيـال عفـراء الحبيبـة لا يفارقه. ثم تكون نهاية المأساة، فيسدل الموت على العاشقين ستار الختـام، فيمـوت عـروة، ويبلـغ النبـأ عفـراء، فيشـتد جزعهاعليـه، وتـذوب نفسـها حسرات وراءه، وتظل تندبه وتبكيه حتى يطويها الموت بعده بقليل. ويـأبى خيال القُصّاص إلا أن يجمع بينهما بعد الموت، فقد دُفنت عفراء إلى جـانب قبر عروة، ومن القبرين تنبت شجرتان غريبتان لم يـر النـاس مثلهمـا مـن قبل، تظلان تنموان حتى تلتفّ إحداهما على الأخـرى ، تحقيقـاً لأمـل قديـم حالت الحياة دون تحقيقه، وأبى الموت إلا أن يحققه.

هذه هى أقدم قصة وصلت إلينا منْ قصص الحب العذرى فـى العصـر الأمـوى، وهـى تمثـل- بحـق- المعـالم الأساسـية، والملامـح المميّزة، لكـل

القصص العذرى، ومن المحتمل- كما قلنا منذ قليل- أن تكون هى التى أعطت هذا اللون من الحب اسمه الذى عرف به.

على نحو من هذه الصورة التى رأيناها فى قصة عروة وعفراء كانت سائر قصص العذريين الأمويين:

أحب قيس بن الملوّح العامرىّ ابنة عمه ليلى. بدأت قصتهما- كما تبدأ أكثر قصص الحب فى البادية- فى المرعى، وهما صبيان يرعيان ماشية أهلهما. وكبر العاشقان، وكبر معهما حبهما، وحجبت ليلى عن قيس، فازداد حبه لها، واشتد حنينه إلى أيامهما الصغيرة أيام أن كان الحب طفلا يرعاهما دون رقيب أو حجاب:

تعلّقتُ ليلى وهى ذات ذؤابة ولم يَبْدُ للأتراب من ثديها حَجْمُ
صغيرين نرعى البهْمَ، ياليت أننا إلى اليوم لم نكبْر ولم تكْبَر البهْمُ

ولكن عجلة الزمن لا ترجع إلى الوراء، وطفل الحب الذى رعاهما فى صباهما الصغير يكبر وينمو، ويشتد ساعده، ويقوى عوده، وسهامه الصغيرة الرقيقة التى ضمت قلبيهما صبيين فى المرعى أصبحت بعد ايام الصبا حادة نافذة. ويشتد هيام قيس، ولا يجد إلا شعره مُتَنَفَّساً له ينفس فيه عن نفسه ما تنوء به من وجد وشوق وحنين. ويشتهر أمره فى الحى، وتتداول الألسنة قصة حبه، ويتقدم إلى أبيها يخطبها، ويتقدم فتى من ثقيف

يخطبها أيضاً، ويُكْرِهُها أهلها على قبول الثقفى ورفض قيس خوفاً من العار وقبح الأحدوثة، وقطعاً لألسنة الشائعات وقالة السوء والإفك. ويمضى

الثقفى بليلى إلى الطائف، وتزداد حيرة قيس واضطرابه، وتثقل على نفسه الهموم والأحزان، ويحس أنه بين شقىْ رحى طاحنة: حب لا يملك منه فكاكاً، ويأس لا يرى معه بصيصاً من أمل. ولا يجد سوى شعره- مرة أخرى- يتنفس فيه ما تفيض به نفسه من حزن وشجن، وحيرة واضطراب، وضيق وسخط:

فأنتِ التى إن شئتِ أشقَيْت عيشَتى	وإن شئتِ بعد الله أنْعَمْت باليا
وأنتِ التى ما مِنْ صديق ولا عِداً	يرى نِضْو ما أبقيتِ إلا رَثى ليا
إذا سرتُ فى الأرض الفضاء رأيْتنى	أصانع رحلى أن يميل حيَاليا
يميناً إذا كانت يميناً، وإن تكن	شمِالا يُنَازعنى الهوى عن شِمَاليا
أعُدُّ الليالى ليلةً بعد ليلة	وقد عشت دهراً لا أعد اللياليا
أرانى إذا صَلَّيْتُ يمَّمتُ نحوها	بوجهى وإن كان المُصَلى ورائيا
وما بىَ إشراك، ولكنَّ حبها	كمثل الشَّجا أعْيَا الطبيب المداويا
أحب من الأسماء ما وافق اسمها	وأشبهه أو كان منه مُدَانيا
هى السحر إلا أن للسحر رُقْيَةً	وأنى لا أُلْفى لها الدهر راقيا

وتنهار أعصاب قيس تحت وطأة هذه الرحى الطاحنة، ويُجن جنونه، وتعصف بعقله لُوثَة، فيخرج إلى الصحراء هائماً على وجهه لا يكاد يدرى من أمره شيئاً، يناجى خيالها البعيد، ويصور فى شعره محنته القاسية، ومصابه الفاجع فى أعز ما يملك فى الحياة: قلبه وعقله اللذين ذهبت بهما ليلى إلى غير رجعة:

أقول لأصحابى: هى الشمس ضوؤها ... قريب ولكنْ فى تناولها بُعْدُ
لقد عارضَتْنا الريح منها بنفْحَةٍ ... على كبدى مِنْ طيب أرواحها بَرْدُ
فما زلتُ مَغْشيًا علىَّ، وقد مضت ... أناةٌ، وما عندى جواب ولا رَدُّ
أقَلَّب بالأيدى، وأهلى بعَولَة ... يُفدُّوننى لو يستطيعون أن يَفدُوا
ولم يَبْقَ إلا الجلد والعظم عاريا ... ولا عَظْمَ لى أنْ دام ما بى ولا جِلْدُ
أدنياىَ ما لى فى انقطاعى وغربتى ... إليك ثواب منك دَيْنٌ ولا نَقْد
عِدِينى- بنفسى أنت - وعداً فربما ... جلا كُرْبَةَ المكروب عن قلبه الوعدُ
وقد يبتلى قوم ولا كبليتى ... ولا مِثْل جَدِّى فى الشقاء بكم جَدّ
غزتنى جنود الحب من كل جانب ... إذا حان مِنْ جُنْد قفول أتى جند

وتمر الأيام، وقيس لا يزداد إلا سوءاً، لقد غزته حقًّا- كما يقول- "جنود الحب من كل جانب"، بل لقد غزته جنود الجنون حتى ذهبت بعقله، وهو جنون بالغ فيه الرواة وتخبطوا فى تصويره، ولعب خيال القصّاص

فى ذلك دوراً كبيراً، حتى تحولت حياة العاشق المسكين على أيديهم إلى حياة يصعب- بل يستحيل- تصورها. والمسألة أبسط مما تصوروا، لقد سيطر الحب على عقل قيس، واستبد به، حتى أذهله عن كل ما عداه، وتركه تائهاً فى أوهامه، هائماً فى خيالاته، لا يكاد يصحو منها إلا إذا ذكرت له ليلى. وهو يصور فى شعره حاله تصويراً دقيقاً لا صلة له بمبالغات الرواة وأخيلة القصاص، يقول مرة:

أيا وَيْحَ مَنْ أمسى تُخُلِّس عقله   فأصبح مذهوباً به كل مَذْهَب
إذا ذُكرَتْ ليلى عَقَلْتُ وراجَعَتْ   عوازبُ قلبى من هوى مُتَشَعِّب

ويقول أخرى:

وإنى لمجنونٌ بليلى مُوكَّلِ   ولستُ عزوفاً عن هواها ولا جَلْدَا
إذا ذُكِرَتْ ليلى بكيتُ صبابة   لتذكارها حتى يَبُلّ البكا الخدا

ويقول أيضاً:

وشُغِلْتُ عن فهم الحديث سوى   ماكان فيكِ فإنه شُغْلى
وأديم لَحْظَ مُحَدِّثى ليرى   أنْ قد فهمتُ وعندكم عقلى

ويبذل أهله كل ما فى وسعهم لينقذوه مما آلت إليه حاله، ولكن محاولاتهم تذهب جميعا أدراج الرياح. ويظل قيس فى صحرائه غريباً مستوحشاً مشرَّداً لم تبق منه إلا بقية من جسد هزيل، وبقية من عقل شارد كلما ثابت إليه فزع إلى شعره يبثه ما يلقاه فى حب ليلى من عناء وشقاء،

وما يقاسيه بسببه من كَرَب وتباريح، حتى يلقى منيته في واد خشن كثير الحجارة[1]، بعيداً عن ليلى التى وهب لها حياته وفنه، بعيداً عن أبيها الذى كان سبب شقائه وبلواه، ولكنه لا ينسى أن يوجه إليه قبل أن يودع الحياة هذه الأبيات التى وجدت- بعد موته- مكتوبة إلى جواره، والتى صور فيها ما تفيض به نفسه من حقد عليه، كما صور فيها مأساته الحزينة تصويراً دقيقاً مؤثراً:

ألا أيها الشيخ الذى ما بنا يَرْضَى   شَقِيتَ ولا هُنِّيتَ منْ عيشكَ الغَضَّا

شقيتَ كما أشْقيتنى وتركتنى   أهيم مع الهُلاَّك لا أطْعَمُ الغمضا

كأنّ فؤادى فى مخالب طائر   إذا ذُكرتْ ليلى يُشَدّ بها قبضا

كأنّ فجاج الأرض حَلْقة خاتم   علىّ فما تزداد طولا ولا عَرْضا

ويسدل الستار على مأساة أخرى من مآسى الحب العذرى.

فى نفس الوقت الذى شهدت نَجْدٌ فيه مأساة مجنون ليلى شهد الحجاز مأساة أخرى من مآسى الحب العذرى بطلاها قيس بن ذريح وصاحبته لبنى[2]

أحب قيس بن ذريح لبنى بنت الحُبَاب، وهو مُضَرِىّ من كنانة، وهى يمنية من خُزَاعَة، تجمع بينهما صلة نسب من جهة الأم، فقد كانت أم قيس

(1) توفى مجنون ليلى حوالى سنة ٧٠ للهجرة.

(2) توفى قيس بن ذريح فى سنة ٦٨ للهجرة فهو معاصر للمجنون.

خزاعية. وكانت منازل كنانة فى ظاهر المدينة، ومنازل خزاعة فى ضواحى مكة. وفى إحدى زياراته لأخواله الخزاعيين رأى قيس لبنى وقد مر بخبائها، فاستسقاها فسقته، وأعجبته فأحبها. ثم تردد عليها وشكا لها حبه فأحبته. ومضى إلى أبيه يسأله أن يخطبها له فأبى. لقد كان أبوه غنيًّا كثير المال، وكان قيس وحيده، فأحب أن لا يخرج ماله إلى غريبة، وقال له: بنات عمك أحق بك. فمضى إلى أمه يسألها أن تذلل له العقبة عند أبيه، فوجد عندها ما وجد عنده. ولجأ قيس أخيراً إلى الحسين بن على – وكان أخاه فى الرضاع، أرضعته أم قيس معه – ووسَّطه فى الأمر. وكان طبيعيًّا أن تكلل وساطة الحسين بالنجاح. لقد مضى الحسين إلى الحباب والد لبنى، ثم مضى إلى ذريح والد قيس، واستطاع أن يجمع بين العاشقين برباط الزوجية المقدس. وتحقق لقيس أمله. وضمه ولبنى بيت الزوجية السعيد، ولكن القدر أبى عليهما سعادتهما ولم يمض عليها سوى سنوات قليلة. لقد كانت لبنى عاقراً، وخشى أبواه أن يصير مالهما إلى الكلالة، فأرادا له أن يتزوج غيرها لعلها تنجب له من يحفظ عليهما مالهما.

ورفض قيس أن يطلق زوجه الحبيبة، وتحرجت الأمور بينه وبين أبويه، إنهما مصممان على طلاقها ، وهو مصمم على إمساكها. وأقسم أبوه لا يكُنّه سقف بيت حتى يطلقها، فكان يخرج فيقف فى حر الشمس، ويأتى قيس فيقف إلى جانبه ويظله بردائه ويَصلَى هو بالحر حتى يفئ الظل

فينصرف عنــه، ويدخل إلـى لبنـى فيعانقها وتعانقـه، ويبكـى وتبكـى معـه، ويتعاهدان على الوفاء. وأزمنت المشكلة، وسـاءت العلاقـات بيـن طرفيهـا، واجتمع على قيس قومه يلومونه ويحذرونه غضب الله فـى الوالدين، ومـا زالوا به حتّى طلق زوجه. ورحلـت لبنـى إلـى قومهـا بمكـة، وجـزع قيـس جزعاً شديداً، وبلغ به الندم أقصى مداه، وتحولت حياته إلى أسف لا ينتهى، وندم لا ينقطع، ودموع لا تغيض، وحسرات لا تقف عنـد حـد، ولـم يجد أمامه سوى شعره يبثه أسفه وندمه ودموعه وحسراته.

يقول مرة:

يقولــون: لبنــى فتنـــة كنـــتَ قبلهـــا بخـير، فـلا تنـدم عليهـا وطلّـق
فطـاوعتُ أعدائى، وعـاصيتُ نـاصحى وأقررتُ عين الشامت المتخلّـق[1]
وَدِدْتُ، وبيـت اللّــه، أنــى عَصَيْتهــم وحُمِّلتُ فى رضوانها كل مُوبق[2]
وكُلِّفتُ خَوْضَ البحر، والبحـرُ زاخـر أبيـت علـى أثبـاج مـوج مُغـرّق[3]
كــأنى أرى النــاس المحبيــن بعدهـــا عصـارة مـاء الحنظـل المتفلّــق
فتنكـر عينـــى بعدهـــا كــل منظــر ويكـره سـمعى بعدهـا كـل منطــق

ويقول أخرى:

وفـــارقتُ لبنـــى ضلّــــةً فكــــأننى قُرِنْـتُ إلـى العيّـوُق ثـم هَوَيْـتُ[4]
فيـــا ليـــت أنـــى مـــت قبـــل فراقهـــا وهـل تَرْجِعَنْ فوْتَ القضيـة لَيْـتُ
فصرتُ وشيخى كــالذى عَثَرتْ بــه غداة الوغـى بيـن العداة كُمَيْـت[5]

---

[1] المتخلق : الذى يتكلف ماليس فى خلقه.

[2] موبق : مهلك، والموبقات : المهلكات.

[3] أثباج الموج: ظهوره ومتونه العالية.

[4] ضلة أى ضلالا. والعيوق: نجم.

[5] يريد بشيخه أباه. والكميت: الفرس.

فقامت، ولم تُضْرَرْ هناك، سَوِيَّةً وفارسها تحت السنابك مَيِّت [1]

فإن يك تهيامي بلبنى غَوايةً فقد، يا ذريح بن الحُبَاب، غَوَيْت

فلا أنتَ ما أمّلتَ فيَّ رأيته ولا أنا لبنى والحياةَ حَوَيْت

فوَطِّنْ لهُلْكي منك نفسا فإنني كأنك بي قد، يا ذريح، قَضَيْتُ

ولم يطق قيس عن لبنى صبراً، واشتد حنينه لها، وشوقه إليها، فعاود زيارتها، وشكاه أبوها للسلطان، فأهدر دمه إن ألمّ بها، وحيل بينه وبينها مرة أخرى. ومرة أخرى لا يجد أمامه سوى شعره يبثه أحزانه وآلامه:

فإن يحجبوها أو يَحُلْ دون وصلها مقالةُ واش أو وعيد أميرِ

فلن يمنعوا عينيَّ من دائم البكا ولن يُذهبوا ما قد أجَنَّ ضميرى

إلى الله أشكو ما ألاقى من الهوى ومن كُرَب تعتادني وزفير

ومن حُرَق للحب فى باطن الحشى وليل طويل الحزن غير قصير

سأبكى على نفسى بعين غزيرة بكاءَ حزين فى الوثاق أسير

وكنا جميعاً قبل أن يظهر الهوى بأنعم حَالَيْ غبطة وسرور

فما برح الواشون حتى بدت لهم بطون الهوى مقلوبةً لظهور

لقد كنت حَسْبَ النفس لو دام وصلنا ولكنما الدنيا متاع غرور

---

[1] سوية: سليمة. يقول حالى مع أبى كفارس عثرت به فرسه فى الحرب بين الأعداء، فقامت الفرس سليمة لم يصبها ضرر، وخر صاحبها صريعاً تحت سنابك الخيل.

ومع ذلك فقد كانت تتاح للعاشقين- من حين إلى حين - فرصة لقاء يائس حزين تزداد معه "حُرَق الحب" تأججاً واشتعالا، ويتجسم بعده الشعور بالحرمان، والإحساس بالحسرة والندم. وساءت حال قيس، واعتلت صحته، وأصابه هزال وذهول شديدان، وأشار قومه على أبيه أن يزوجه عله ينسى حبه القديم. وتزوج قيس كارهاً زواجاً لا سعادة فيه، وبلغ الخبر لبنى فتزوجت هى أيضاً زواجاً لا سعادة فيه، ورحل بها زوجها إلى المدينة، وكأنما شاءت الأقدار أن تقرّب لبنى من قيس لتزيد من ندمه وأسفه وحسراته. واشتد جزع قيس، ولم يلبث أن استطير عقله ولحقه مثل الجنون. وضاقت السبل فى وجهه، ثم خطر له أن يلجأ إلى يزيد بن معاوية ليتوسط له عند أبيه حتى يلغى أمره السابق بإهداردمه. ونجحت وساطة يزيد، وعفا معاوية عن قيس، فعاود زيارة لبنى. وانتشر أمر قيس فى المدينة، وغنى فى شعره مغنوها ومغنياتها، " فلم يبق شريف ولا وضيع إلا سمع بذلك فأطربه وحزن لقيس مما به".

وساءت العلاقات بين لبنى وزوجها، لقد غضب الزوج وأنّب زوجته، وغضبت لبنى وطلبت من زوجها الطلاق.

وعادت الأمور تتعقد فى وجه قيس، وازدادت همومه وأعباؤه، وأخذت صحته فى الانهيار، والأدواء والأسقام تلح عليه إلحاحاً عنيفاً، يقول تارة:

إذا ذُكـرتْ لبنــى تــأوَّه واشــتكى ... تــأوُّه محمــوم عليــه البلابــلُ[1]
يبيت ويُضْحـى تحـت ظـل منيَّـة ... بــه رَمَــق تبكــى عليــه القبَــائل
قتيـل للبنـى صـدَّع الحـب قلبـه ... وفـى الحب شُغْل للمحبين شــاغل

ويقول تارة أخرى:

سـلا كل ذى شَجْو علمـتُ مكانـه ... وقلبــى للبنـــى مــا حَيِيــتُ وَدُودُ
وقائلــة قـد مـــات أو هـــو ميّــت ... وللنفـس منــى أن تفيـض رصيــد
أعــالج مـن نفسـى بقايـا حُشاشـة ... علــى رَمَــقٍ، والعــائدات تعــود
فـإن ذُكـرت لبنـى هَشِشْتُ لذكرهــا ... كمـا هَـشَّ للثـدى الـدَّرُور وليـد
أجيـب بلبنـى مـنْ دعـانى تجلـدا ... وبــى زَفَــرات تتجلــى وتعــود
تعيد إلـى روحـى الحيـاة، وإننـى ... بنفســى لــو عــايَنْتَنى لأجــود

ثم تكون النهاية التى اختلف الرواة حولها، فمن قـائل إن زوجها طلقها فأعادها قيس إلى عصمته ولم تزل معه حتى ماتا، ومن قائل إنهما ماتا على افتراقهما، وعلى ذلك أكثر الرواة. ثم يختلفون بعد ذلك، فمنهم من يقول إنه مات قبلها وبلغها نعيه فماتت أسفاًعليه، ومنهم من يقول إنها ماتت قبله، فخرج ومعه جماعة من أهله، فوقف على قبرها، ثم أكب عليه وظل يبكى حتى أغمى عليه، فحملوه إلى بيته وهو لا يعى شيئاً، ولم يـزل عليلا

---

[1] البلابل : الوساوس.

لا يفيق ولا يجيب حتى مات بعد ثلاثة أيام، فدفن إلى جوارها، وأسدل الستار على مأساة أخرى من مآسى الحب العذرى.

قريبا من هذا الوقت الذى شهدت فيه نجد مأساة قيس وليلى، وشهد الحجاز مأساة قيس ولبنى، شهدت أرض بنى عذرة مأساة أخرى من مآسى الحب العذرى، هى مأساة جميل وبثينة [١] .

وإذا كانت مأساة قيس وليلى- على شهرتها المستفيضة- أشد هذه المآسى اختلاطاً واضطراباً لكثرة ما دخلها من وضع الرواة، وتزيد القُصّاص، وأوهام السُمّار، فإن مأساة جميل وبثينة أبعد هذه المآسى عن الاختلاط والاضطراب، وأقربها إلى الواقع الذى نجا من عبث أصحاب الرواية والقصص والسمر.

أحب جميل بن مَعْمَر العذرى ابنة عمه بثينة بنت الحباب. رآها ذات يوم فى المرعى وقد مَرَّت به فنفَّرت إبله، فسَّبها فسَّبته، واستملح سبابها فأحبها وأحبته، وبدأت السطور الأولى فى قصة الحب العذرى الخالدة:

---

[١] توفى جميل فى سنة ٨٢ للهجرة.

وأول مـــا قـــاد المـــودة بيننـــــا   بـــوادى بَغيـــضٍ، يـــابثينَ، سِـــبَابُ
فقلنــا لهـــا قـــولا فجـــاءت بمثلـــه   لكـــل كـــلام، يـــابثين، جـــواب

وتمرالأيام، وسطور القصة تتوالى سـطراً بعـد سـطر. لقـد اشـتد هيـام جميل ببثينة، واشتد هيامها به، وشهدت أرض عذرة العاشـقين يلتقيِـان ولا يكاد أحدهما يصبر عن صاحبه.

وشاعت قصتهما، وشــهر أمرهمــا، فتوعـده قومهـا، وتقـدم جميـل إليهـم يخطبها، ولكنهم أبوها عليه وردّوه دونها، وزوجوها من فتى منهم، نُبَيْه بن الأسود العذرى. وكان جميل من فتيان عذرة وفرسانها الأشداء، وكان قومه أعز من قوم بثينة، فوقف فى وجههم يتحداهم ويهزأ بهم. يقول مرة:

ولـــو أنّ ألفـــاً دون بَثْنَـــة كلهـــم   غيـارى، وكـلٌ حـاربٌ مُزْمِـعٌ قتلـى
لحاولتهـــا إمـــا نهــــارا مجـــاهرا   وإما سرى ليل ولــو قُطعـتْ رجلـى

ويقول أخرى:

فليت رجـــالا فيـك قـد نـذروا دمـى   وهَمُّـــوا بقتلـــى، يـــابثين، لَقُونـــى
إذا مـــا رأونـــى طالعـــاً مـــن ثَنِيَّـــة   يقولـون : مـن هـذا؟ وقـد عرفونـــى
يقولـون لـى: أهـلا وسـهلا ومرحبـا   ولـــو ظفـــروا بـــى خاليـــا قتلونـــى

ولم يغير هذا الزواج من الحب الجارف الذى كان يملأ على العاشقين قلبيهما، وظلت العلاقة بينهما كما كانت من قبل، يزورها سرًّا في غفلة من زوجها، أو يلتقيان خارج بيت الزوجية، وما بينهما سوى الطهر والعفاف. وشكا زوجها إلى أهلها، وشكا أهلها إلى أهله، وتحدث إليه أهله فى أمر هذه العلاقة الغريبة التى لا أمل فيها، وهذا الإلحاح الذليل خلف امرأة متزوجة، وحذّروه مغبة الاندفاع فى هذا الطريق الشائك الوعر، وما ينطوى عليه من عواقب وخيمة، وهددوه بأن يتبرأوا منه ويتخلوا عنه إذا استمر فى ملاحقته لها. ولكن هذا كله لم يغير من الأمر شيئاً، ولم يفلح فى إطفاء الجذوة المتقدة فى قلبى العاشقين. لقد امتنع جميل عن بثينة فترة من الزمن لم تطل، ثم عادت النار تتأجج في فؤاده، فعاود زيارتها، بل تمادى فى علاقته بها، وفى تحديه لأهلها واستهانته بزوجها، فلم يجدوا أمامهم سوى السلطان يشكونه إليه، فشكوه إلى عامر بن ربْعِيّ والى بنى أمية على وادى القرى، فأنذره وأهدر لهم دمه إن رأوه بديارهم. وامتنع جميل عن بثينة مرة أخرى، ومرة أخرى ألح عليه الشوق، ولم يطق عنها صبراً، فعاود زيارتها معرّضا نفسه للهلاك. وأعاد أهلها شكواهم إلى السطان، فطلبه طلباً شديداً. وفرّ جميل إلى اليمن حيث أخواله من جذام، وظل مقيما بها حتى عُزل ابن ربعي، فعاد إلى وطنه ليجد قوم بثينة قد رحلوا إلى الشام، فرحل وراءهم. وكأنما يئس جميل من هذه المطاردة التى لا تنتهى،

والتى أصبح الأمل فيها ضعيفا، والفرصة ضيقة. لقد فرّقت البلاد بينه وبين صاحبته، ولم يعد لقاؤهما ميسراً كما كان عندما كانت تضمهما جميعاً أرض عذرة، فقرّر أن يرحل إلى مصر، ربما ليلحق ببعض قومه الذين سبقوه إليها، واستقروا بها، كما فعلت كثير من القبائل العربية التى هاجرت إليها بعد الفتح. وانتهز جميل فرصة أتيحت له فى غفلة من أهل بثينة، فزارها مودّعا الوداع الأخير، ثم شد رحاله إلى مصر حيث قضى فترة من الزمن لم تَطُل، يتشوق إليها، ويحن لها، ويتذكر أيامه معها، ويبكى حبه القديم:

ألاَ ليت أيام الصفاء جديدُ	ودهرا تولى يابثين يعودُ
فنَغْنى كما كنا نكون، وأنتمُ	صديقٌ، وإذ ما تبذلين زهيد
وما أنْسَ م الأشياء لا أنس قولها	وقد قرّبتْ نِضْوى: أمصر تريد؟
ولا قولها: لولا العيون التى ترى	أتيتُكَ فاعذرنى فدتكَ جدود
علقتُ الهوى منها وليدا فلم يزل	إلى اليوم يَنْمى حبها ويزيد
فلو تُكْشَف الأحشاء صودف تحتها	لبَثْنَةَ حبٌ طارف وتليد
ألا ليت شعرى هل أبيتنَّ ليلة	بوادى القرى إنى إذن لسعيد
وهل ألقيَنْ سُعْدَى من الدهر مرةً	ومارثً من حبل الصفاء جديد[1]

---

[1] سعدى هى بثينة .

وقد تلتقى الأهواء من بعد يأسَة   وقد تطلب الحَاجات وهى بعيدُ

ولكن القدر أبى أن تلتقى الأهواء بعد يأس، أو أن تدرك الحاجات البعيدة ، فلم تطل أيام جميل بمصر، فقد أخذ النور يخبو، ثم انطفأ السراج، وودّع جميل الحياة بعيداً عن بثينة التى أفنى شبابه فى طلبها، بعيداً عن أرض عذرة التى شهدت أيامهما السعيدة وأيامهما الشقية، بعيدا عن وادى القرى الذى كان يتمنى أن يعود إليه ليبيت فيه ليلة تكتمل له فيها سعادته. ويبلغ نعيه بثينة بعد حين ، فتسقط مغشياً عليها، حتى إذا ما أفاقت أنشدت هذين البيتين اللذين تعاهد فيهما نفسها على الوفاء لعهده والإخلاص لذكراه، واللذين أودعت فيهما كل ما تفيض به نفسها من مرارة ويأس بعده:

وإن سُلُوّى عن جميل لَسَاعةٌ   من الدهر ما حانت ولا حان حينها
سواءٌ علينا ياجميل بن مَعْمَر   إذا متَ بأساءُ الحياة ولينُها

وتمر الأيام عليها بعد ذلك حزينة باكية، وتتوالى الليالى طويلة ثقيلة موحشة، تستعيد فيها ذكريات حبها البعيدة ، وتسترجع ما مَرَّ بها فى ماضيها السعيد الذى طوته رمال عذرة إلى الأبد. ويأخذ النور يخبو، ثم ينطفئ السراج، وتودع بثينة الحياة بعيدة عن جميل الذى وهبته حبها وإخلاصها، بعيدة عن أرض عذرة ووادى القرى ووادى بغيض حيث خَطّ

طفل الحب أول سطر فى كتاب حبهما الخالد. ويسدل الستار على مأساة أخرى من مآسى الحب العذرى الحزينة .

ويطول بنا القول لو مضينا نستعرض سائر مآسى الحب العذرى التى شهدتها البادية العربية فى هذا العصر، وهى مآس متشابهة الأحداث إلى حد كبير، متشابهة الطوابع الفنية إلى حد أكبر. وإذا كانت مأساة قيس بن ذريح ولبنى تمثل شيئاً من الخروج على هذا التشابه، فإن الإطار العام الذى دارت فى داخله أحداثها يوشك أن يكون نفس الإطار الذى دارت فيه سائر المآسى الأخرى: عاشقان يحب كل منهما صاحبه إلى درجة الجنون، ثم عقبات تعترض طريق سعادتهما فتفرض عليهما الشقاء والحرمان، ثم موت يطويهما، وستار حزين يسدل على المأساة، وذكريات تبقى، وشعر يَخلُد، ورمال البادية المتحركة تطوى فى أعماقها أسرارا، وتكشف أسرارا أخرى.

٣

الصورة العامة للحب العذرى تتلخص فى أنه حب روحى يأخذ شكل مأساة حزينة، بدايتها أمل، ونهايتها يأس، تدور أحداثها بين عاشقين تسيطر على حبهما العفة والإخلاص والتوحيد والحرمان.

فهو حب روحى عفيف طاهر لا سلطان لشهوات الجسد أو نوازع الغريزة عليه، تسيطر عليه عاطفة تتسامى على الغرائز والشهوات ولا تجعل لها سبيلا إليها. وليس معنى هذا أنه حب يلغى الجسد إلغاء تامًا، فإن هذا لا يتفق مع طبيعة الحياة، ولا يستقيم مع واقع الصلة بين العواطف والغرائز فى الطبيعة البشرية. والأمر الذى لا شك فيه هو أن حب الجسد دافع من الدوافع إلى هذا الحب، كما أنه هدف من أهدافه، لأنه بدون هذا الدافع، ومن غير هذا الهدف، لا يمكن لعاطفة حب بين رجل وامرأة أن تقوم. ومن الواضح أن المسألة فى بدايتها إعجاب رجل بامرأة، وطبيعى أن يكون الإعجاب بالجسد جزءاً من هذا الإعجاب العام، وإلا لما كان الزواج هدفاً يسعى إليه كل عاشق، وأملا يتمنى أن يتحقق له، ويلاقى فى سبيله صنوفاً من البلاء والعذاب والعناء، ولكن النقطة الحاسمة فى الموضوع التى تفصل بوضوح بين هذا اللون من

الحب وغيره من الألوان هى أن هذا الإعجاب بالجسد لا يصل إلى درجة السيطرة وفرض السلطان على العلاقة بين العاشق العذرى وصاحبته بحيث تتحول المسألة إلى ظمأ جسدى خالص أو جوع جنسى مطلق. فالجانب الجسدى فى الحب العذرى يظل فى موضعه المشروع رغبات يتمنى العاشق أن تتحقق له عن طريق الزواج، وبهذا تتحول المسألة إلى حب مشروع لا إثم فيه، يقره الخلق، وترضاه الفضيلة، ولا ينكره الدين،ما دام الهدف منه تلك الرابطة المقدسة المشروعة. ولو لاهذا لما رأينا رجلا كالحسين حفيد رسول الله يتوسط من أجل قيس بن ذريح حتى تتحقق له هذه الرابطة المقدسة بينه وبين صاحبته.

فى ضوء هذا الفهم نستطيع أن نرى الحب العذرى فى وضعه الصحيح صراعاً بين الجسد والروح يتحول فى نفس العاشق-لأسباب شخصية أو اجتماعية أو اقتصادية-إلى رغبات مكبوتة، وهى رغبات كان العشاق العذريون يتسامون بها فوق مستوى الغرائز، ويرتفعون بها فوق مستوى الشهوات، ويستعلون بها فوق رغبات الجسد.

وشعر العذريين كلهم-بدون استثناء-وأخبارهم تضوع بهذا العطر النقى الصافى، عطر الطهر والعفة والفضيلة. يقول جميل:

وكـــان التفـــرق عنـــد الصبـــا ح عـــن مثـــل رائحـــة العنـــبر

خليـــلان لـــم يَقْرَبـــا ريبـــة ولـم يُسْتخفـــا إلـــى مُنْكَـــرِ

فهما عاشقان يحب كل منهما صاحبه، جمعتهمـا علـى غفلـة مـن النـاس خلـوة فـى الليـل استمرت حتـى الصبـاح، ومـع ذلـك لـم يقربـا ريبـة، ولـم يستخفهما الهوى إلى إثم أو منكر. إنه الحب العذرى العفيف الطـاهر الـذى يتسـامى بـه أصحابـه فـوق رغبـات الجسد ومـا يضطـرم فيـه مـن غرائـز وشهوات. ويقول أيضاً:

لا والـــذى تَسْـــجُدُ الجبـــاه لـــه ومـــالى بمـــا دون ثوبهـــا خـــبرُ

ولا بفيهـــا، ولا هممـــتُ بـــه، مـــا كـــان إلا الحديـــث والنظـــر

فهـو يكتفـى بـالنظرة، ويقنـع بـالحديث، ولا يطمـع فـى أكثر مـن هـذا مـن مُتَع الجسد.بـل إنـه يصـرح فـى أبيـات أخـرى بـأن كـل رغبـات الجسد تمـوت منـه إذا مـا لقيهـا، وهـو لهـذا واثـق مـن أن حبـه مشـروع لا إثـم فيـه، ولا حـدود عليـه بسـببه:

يمـوت الهـوى منـى إذا مـا لقيتهـا ويحيـــا إذا فارقتهـــا فيعـــودُ

لئن كـان فـى حـب الحبيب حبيبـه حـدود لقـد حَلَّـتْ علـىَّ حـدود

ويقول قيس بن ذريح مصورًا ذلك الصراع العنيف بين الجسد والـروح الذى يملأ عليه أرجاء نفسه:

تتـوق إليــكِ النفــس ثــم أردهـــا   حيـــاءً، ومثلـــى بالحيـــاء حَقِيـــقُ
أذود سَـوَامَ النفـس عنـكِ، ومالـــه   علـــى أحَـــد إلا عليـــك طريـــق

إنه يعانى صراعاً نفسيًّا عنيفاً بين رغبات جسده التى تغريه عليها النفس الأمارة بالسوء، وبين مثاليته الخلقية التى ترده عنها، وإنها لرغبات جامحة تنطلق فى أعماقه كما ينطلق السوام فى المرعى، ولكن حبه العذرى يقف دونها ليصدها ويكبح جماحها. إنه يسجل هنا انتصار الروح على الجسد، أوهزيمة النفس الأمارة بالسوء أمام المثالية الخلقية التى يؤمن بها، ويتخذ منها عقالا يقيد سوام نفسه، ويحول بينه وبين الانطلاق والجموح والتمرد.

ويذكر الرواة فى أحاديثهم عن هؤلاء العذريين أخباراً كثيرة عن هذه العفة وهذا الطهر، ويصفون لقاء جميل وبثينة فى أحضان الليل بعيداً عن أعين الرقباء، وكيف كانا يقضيان الوقت يسألها عن حالها وتسأله عن حاله، وتستنشده ما قال فيها من شعر فينشدها، "ولا يزالان يتحدثان، لا يقولان فحشاً ولا هُجْراً، حتى إذا قارب الصبح ودّع كل منهما صاحبه أحسن وداع، وانصرفا وكلٌّ منهما يمشى خطوة ويلتفت إلى صاحبه حتى يغيبا". وفى اللحظات الأخيرة من حياة جميل، وهو فوق ذلك المعبر الضيق

الذى يفصل بين شط الحياة وشط الموت، أقسم إنه ما وضع يده على بثينة لريبة، وإن أكثرما كان منه أن يسند يدها إلى فؤاده يستريح ساعة.

فى ظل هذه العفة وهذا الطهر قضى العذريون حياتهم يعانون حرماناً شديداً، وهو حرمان كانت تزيد من حدته تلك العقبات التى كانت تعترض دائماً طريق حبهم، وتحول دون تحقق الأمل المشروع الذى كان أمنية تراود نفس كل واحد منهم. وعلى قسوة هذا الحرمان لم يفكر العذريون فى السلو والنسيان أو التماس المتعة فى حب جديد، بل ربما كان غريباً أن يدفعهم هذا الحرمان إلى التشبث بالأمل الضائع، والوفاء للحب اليائس، وترويض النفس على الرضا والصبر، مؤمنين جميعاً بفكرة هذا البيت الذى يُنسب مرة لقيس بن ذَرِيح ومرة لقيس بن الملّوح:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما ... يظنان كل الظن أنْ لا تلاقيا

ومرة أخرى يبرز الصراع فى مآسى الحب العذرى، ولكنه فى هذه المرة صراع بين الأمل واليأس، وهو صراع كان يملأ على العذريين نفوسهم بالحيرة والقلق والاضطراب.يقول قيس بن الملوّح مصوّرا هذا الصراع بين اليأس الذى يميته، والأمل الذى يحييه:

ألقى من اليأس تاراتٍ فتقتلنى ... وللرجاء بشاشات فتُحْيينى

وقد حاول العذريون أن يحلوا مشكلة هذا الصراع بترويض نفوسهم على الرضا بالحرمان، وهو رضا أحال حياتهم وهما كاذباً، وسراباً خدّاعاً، وأحلاماً لا تقوم على أساس من الواقع العملى الذى تقوم عليه حياة غيرهم من الناس. يقول جميل معبراً عن هذه الفكرة، فكرة الرضا بالحرمان، والقناعة بالوهم الكاذب الخدَّاع:

وإنى لأرضى من بثينة بالذى ... لو ابصره الواشى لقرّتْ بلابلهْ

بلا، وبأن لا أستطيع، وبالمنى ... وبالأمل المرّجوّ قد خاب آمله

وبالنظرة العَجلى، وبالحول تنقضى ... أواخره لا نلتقى وأوائله

ويقول قيس بن ذريح مصوّرا كيف يروّض نفسه على الرضا بالحرمان الذى فُرض عليه، والتشبث بالآمال الضائعة التى أفلتت منه:

إن تك لبنى قد أتى دون قربها ... حجاب منيع ما إليه سبيلُ

فإن نسيم الليل يجمع بيننا ... ونبصرُ قرن الشمس حين تزول

وأرواحنا بالليل فى الحى تلتقى ... ونعلم أنّا بالنهار نَقِيل

وتجمعنا الأرض القَرَار، وفوقنا ... سماء نرى فيها النجوم تجول

إلى أن يعود الدهر سَلْماً، تَراتٌ بَغَاها عندنا وذُحُول[1]

---

[1] الترات جمع ترة، والذحول جمع ذحل، وكلاهما بمعنى الثأر.
وبغاها: طلبها.

لقد تصور هؤلاء العذريون مشكلتهم على أنهـا قـدر مقـدور قضـاه اللـه عليهم فلا يملكون معه إلا الصبر عليه والرضا به.

يقول جميل معبراً عن هذه القدرية المحتومة:

لقـد لامنـى فيهـا أخ ذو قرابـة حبيـب إليـه فـى ملامتـه رشـدى
فقال: أفق، حتـى متـى أنـت هـائم ببثنـة فيهـا لا تعيـد ولا تبـدى؟
فقلت له : فيها قضـى الله مـا تـرى علىّ، وهل فيما قضى الله من رد؟
فـإن يـك رشـدا حبهـا أو غوايـة فقد جئته، ما كان منى على عمد
لقـد لـج ميثـاق مـن اللـه بيننـا وليس لمن لم يوف لله من عهد

إنه لم يعد يملك من أمر نفسه شيئاً، لقد قضى الله عليه هذا الحـب، ولا رادّ لقضائه، إنه قدر مقدور لا يملك له دفعاً ولا ردًّا.

ومـع ذلـك لـم يفلـح العذريـون فـى حـل مشـكلة هـذا الصـراع فـى نفوسـهم، أو إقنـاع أنفسـهم بـأن المسـألة قـدر مقـدور لا يملكـون معـه شيئا، أو ترويضها على الرضا بالحرمان الذى فـرض عليهـم، وإنمـا كـانت كلها محـاولات يحاولونها، قد ينجحـون فيهـا فـى بعـض الأحيـان، ولكنهم فـى أكثر الأحيان كـانوايخفقون ، فـنرى فـى شـعرهم الشـكوى الصارخـة، والأحـزان التـى يعجـزون عـن إخفائهـا، والدمـوع التـى لا يملكـون لهـا كتمانـاً، والسـخط الـذى لا يقـدرون علـى التخلـص منـه.

وشعر العذريين جميعاً مطبوع كله بهذا الطابع الحزين الباكى، حتى ليعد هذا الطابع من أقوى طوابعه المميزة وأعمقها. يقول قيس بن الملوح مصوراً هذا السخط الذى تنوء به نفسه الحزينة المتمردة:

خليلىّ، لا والله لا أملك الذى قضى الله فى ليلى ولا ماقضى ليا
قضاها لغيرى، وابتلانى بحبها فهلاّ بشئ غير ليلى ابتلانيا

ويقول جميل مصوّراً أحزانه الطاحنة التى تحطم نفسه تحطيماً حتى ليوشك أن ينهار تحت وطأتها:

وما ذكرتك النفس يا بَثنَ مرة من الدهر إلا كادت النفس تَتْلَفُ
وإلا علتنى عبرة واستكانة وفاض لها جار من الدمع يُذْرَف
تعلقتها ، والنفس منى صحيحة فما زال يَنْمى حبُ جملٍ وتضعف[1]
إلى اليوم حتى سلّ جسمى وَشفنى وأنكرتُ من نفسى الذى كنت أعرف[2]

ويقول قيس بن ذريح مصوراً عجزه عن نسيان لبنى، وكيف يخونه الصبر كلما مرت به ذكراها:

أريد سلوا عن لبينى وذكرها فيأبى فؤادى المستهام المتيَّمُ
إذا قلت أسلوها تعرّض ذكرها وعاودنى من ذاك ما الله أعلم

---

[1] ينمى : يزيد. وجمل هى بثينة . والضمير فى تضعف يعود على النفس.
[2] شفنى : أهزلنى.

صحا كل ذى ود علمتُ مكانه سواى فإنى ذاهب العقل مغرم

ويقول أيضاً مصوراً محاولاته السلوان، وكيف ترده عنها نفسه الوالهة ودموعه المهراقة، حتى لتصبح هذه المحاولات تكليفا لنفسه فوق ما تطيق. ففى أعماقه نار لا تخمد ولا تكف عن التأجج والتوهج:

وَحدَّثْتَنى يا قلب أنك صابر على البين من لبنى فسوف تذوقُ
فمتْ كمدا أو عش سقيما فإنما تكلفنّى ما لا أراك تطيق
إذا أنا عزّيت الهوى أو تركتُه أنت عبرات بالدموع تسوق
كأن الهوى بين الحيازيم والحشا وبين التراقى واللهاة حريق[1]
أريد سلوا عنكمُ فيردنى عليك من النفس الشّعاع فريق[2]

وفى ظل هذا الصراع الحاد بين اليأس والأمل، وفى ظل هذه المحاولات السلبية للسلو والنسيان عاش العذريون مخلصين لمحبوباتهم. لقد وهب كل منهم حياته لواحدة أخلص لها حبه ولم يشرك به حباًآخر، لا يعدوها إلى غيرها، ولا يصرف هواه إلى سواها، ولا يُنقّل فؤاده حيث شاء من الهوى،

---

(1) الحيازيم: جمع حيزوم وهو وسط الصدر وما يشد عليه الحزام. والتراقى: عظام الصدر العليا، جمع ترقوة.

(2) النفس الشعاع: التى فرّقها الحزن وذهب بها كل مذهب.

وإنما يعيش حياته- على ما فيها من حرمان وأحزان- متعبداً فى محرابها، موحداً بحبها، فقد ارتبطت حياته بها، وأصبح كل شئ فيها ملكاً لها، واستحالت أيامه ولياليه ذكريات وأحلاماً استقرت فى شعوره وفى لاشعوره فهو يعيش بها ولها وعليها، ولم يَعُد فى قلبه متسع لمحبوبة أخرى بعد أن ثبت حبها فيه "كما ثبتت فى الراحتين الأصابع"- كما يقول قيس بن الملوح أو قيس بن ذريح على اختلاف فى نسبة البيت. فالتوحيد سمة أخرى من سمات الحب العذرى البارزة المميزة، فلم يُعرف عن أى عاشق من هؤلاء العذريين أنه أشرك فى حبه أو أحب أكثر من واحدة منذ النظرة الأولى، أو منذ السهم الأول الذى جمع به طفل الحب الخالد بين قلبيهما. يقول قيس بن الملوح معبراً عن هذا التوحيد الذى محا من قلبه كل شرك كان فيه من قبل:

محا حبها حبّ الألى كنّ قلبها وحلت مكاناً لم يكنُ حلّ من قَبْلُ

ويقول جميل مصوراً إخلاصه لصاحبته الذى يحمله فى قلبه لها حتى ليصرفه عن كل فتاة غيرها مهما تحاول إغراءه أو التقرب إليه بما تبذله له من متع لا ينالها من صاحبته:

فلربّ عارضة علينا وصلها بالجد تخلطه بقول الهازل

فأجبتها بالقول بعد تستر: حبى بثينة عن وصالك شاغلى
لو كان فى قلبى كقدر قلامة فضلا وصلتك أو أتتك رسائلى
ويقلن : إنكَ قد رضيت بباطل منها فهل لك فى اجتناب الباطل؟
ولَبَاطلٌ ممن أحب حديثه أشهى إلىّ من البغيض الباذل
ليُزلن عنك هواى ثم يصلننى وإذا هَويت فما هواى بزائل

إنها فكرة الحب للحب آمن بها هؤلاء العذريون إيماناً تغلغل فى أعماق قلوبهم، فتحول الحب عندهم إلى وسيلة وغاية معاً، أو قل تحول إلى حب مثالى مجرد عن الغايات والأغراض.

وفى ظل هذه المثالية المجردة عاش العذريون فى صراع لا تهدأ ناره، ولا يخمد أواره، بين العالم الواقعى العملى الذى يعيشون فيه، والعالم المثالى النظرى الذى يعيشون له، وهو عالم أفلح العذريون فعلاً فى خلقه لأنفسهم، ولكنهم عاشوا فيه يكابدون أحزانهم القاتلة وهمومهم السود، ويعانون اضطراباً لا يرون فى ظلماته سبيلاً إلى الاستقرار، وحيرة لا يعرفون بين أعاصيرها شطًا للنجاة . يقول قيس بن الملوح مصوراً هذا الاضطراب وهذه الحيرة أدق تصوير وأروعه:

فوالله ثم الله إنى لدائبٌ أفكّر ما ذنبى إليك وأعْجَبُ؟

ووالله مـا أدرى عَـلامَ قتلتنـى؟ وأىّ أمورى فيك يـا لَيْلَ أركـبُ؟

أأقطع حبل الوصل فالموت دونـه؟ أم اشرب رَنقاً منكمُ ليس يُشْرَب؟[1]

أم اهرب حتى لا أرى لى مجاورا؟ أم اصنـع مـاذا أم أبـوح فـأُغلَب؟

فأيهمـا يـا لَيْـلَ مـا ترتضينـه؟ فـإنى لمظلـوم، وإنـى لمعْتِـب

إنهـا الحـيرة والاضطـراب والقلـق النفسـى عـبر عنهـا قيـس هـذا التعبير الرائـع، معتمـداً علـى هذا الأسـلوب الاسـتفهامى الحـائر، وهـذه التقسيمات المضطربـة القلقـة لوجوه المشكلة التـى يعانيهـا كمـا يعانيهـا غيره من أصحابه العذريين.

والنتيجة الطبيعية لهذا الصراع الدائب المتصل الـذى لا يهدأ ولايستقر أسقام وأدواء وأوجاع وعلل تصطلح علـى العاشق المسكين، فينوء تحت وطأتها جسده الذى أهزله الضنى، وأضناه الهـزال، وتنهـار معهـا أعصابـه التـى أرهقهـا الصـراع النفسـى الـذى لا ينتهـى إلـى نهايـة مريحـة، والتـى أجهدها التفكير فى مشكلات معقدة لا حل لهـا. ثـم تكـون النهايـة المحتومـة التى لا مفر منها، الموت، فيودع العاشق حياته على أمل فى أن يجمع اللـه

---

[1] الرنق: الماء الكدر.

بينه وبين صاحبته بعد الموت، عسى أن يتَحقق له فى العالم الخالد ما لم يتحقق له فى العالم الفانى.

أمنية تمناها كل عاشق عذرى، وأغمض عينيه الإغماضة الأبدية على خيال جميل منها . يقول عروة بن حزام:

وإنى لأهوى الحشر إذ قيل إننى   وعفراء يوم الحشر ملتقيان
فياليت محيانا جميعاً، وليتنا   إذا نحن متنا ضَمّنًا كفنان

ويقول جميل:

أعوذ بكَ اللهم أن تشحط النوى   ببثنة فى أدنى حياتى ولا حشرى
وجاورْ إذا ما متُّ بينى وبينها   فيا حبذا موتى إذا جاورتْ قبرى

ويقول أيضاً:

ألا ليتنا نحيا جميعاً، وإن نمُتْ   يُوَاف ضريحى فى الممات ضريحُها
فما أنا فى طول الحياة براغب   إذا قيل قد سُوى عليها صفيحها[1]

---

[1] الصفيح هنا حجارة القبر.

٤

انتشر هذا اللون من الحب العفيف الذى أطلق عليه الحب العذرى" فى البادية العربية أيام بنى أمية انتشاراً واسعاً لفت أنظار الباحثين فخُيِّل لهم أنه نتاج أموى خالص، وثمرة الحياة الأموية وحدها، وردوا ظهوره إلى الإسلام وما غيّره من المثالية الخلقية عند العرب.

والتعليل والنتيجة كلاهما خاطئ، فهذا اللون من الحب تمتد جذوره إلى العصر الجاهلى، فهو نتاج البادية العربية منذ هذا العصر، وثمرة الحياة الاجتماعية التى كانت تعيشها القبائل العربية فيه. والإسلام لم يخلق هذا الحب من عدم، والحياة الإسلامية الجديدة لم تكن السبب فى نشأته، لسبب بسيط جدًّا وهو أن هذا الحب كان موجوداً فى البادية العربية من قبل ظهور الإسلام، وإنما كانت هذه الحياة الإسلامية سبباً فى أن يصبح هذا اللون من الحب اللون الأول فى لوحة الحياة البدوية الإسلامية، فالإسلام هو الذى حال بين عرب البادية وبين ألوان الحب الأخرى الحسية، فلم يجدوا لعواطفهم متنفَّساً إلا فى هذا الحب العفيف الذى لا يحرمه الدين الجديد ولا ينكره.

فكل من يقرأ الغزل الجاهلى، ويتتبع الحياة الاجتماعية فى هذا العصر، يستطيع أن يتبين الاتجاهين الأساسيين من اتجاهات الحب اللذين أشرنا

إليهما فى صدر هذه الصفحات: الاتجاه الحسى الذى تتعدد فيه المعشوقات، والاتجاه الروحى الذى تتوحد فيه المحبوبة.

فإلى جانب امرئ القيس والأعشى وأضرابهما ممن يمثلون الاتجاه الحسى اللاهى، عرف المجتمع الجاهلى فى باديته ومدنه طائفة من الشعراء يمثلون الاتجاه الروحى العفيف فى نفس الإطار العام الذى دارت فيه قصص العذريين الأمويين، واحتفظ رواة الأدب العربى بكثير من أخبارهم وشعرهم، وأطلقوا عليهم اسم " المتيَّمين"، تمييزاً لهم من سائر الشعراء العشاق الذين يمثلون الاتجاه الآخر، وربطوا بين كل متيَّم وصاحبته التى عُرف بها، تماماً كما فعلوا مع " العذريين" فى العصر الأموى: فالمرقِّش الأكبر وأسماء،المرقِّش الأصغر وفاطمة، والمخبَّل وميلاء، وعبد الله بن العَجْلان وهند، ومالك بن الصمصامة وجَنُوب، وقيس بن الحِدَاديّة ونُعْم، وعبد الله بن علقمة وحُبَيْشة، وعمرو بن كعب وعُقَيْلة، ثم أبعدهم صيتاً وأشدهم ذكراً عنْترة وعبلة.

وتوشك الصورة العامة لقصص هؤلاء " المتيمين" أن تكون نفس الصورة التى رأيناها فى قصص " العذريين " الأمويين. فهى قصة حب متشابهة إلى حد بعيد، تكاد تختلف بين عاشقين وعاشقين إلا فى التفاصيل، أما الصورة العامة فهى هى:

شاب يحب ابنة عمه فى أكثر الأحيان، وقد يحب فتاة من غير قبيلته فى بعض الأحيان، ثم يطلب يدها من أهلها فتقف عقبة من العقبات فى طريقه، وقد يتحقق أمله ثم تنشأ عقبات تفرق بيهما، فيعيش بقية حياته وقد سيطر عليه خيال محبوبته سيطرة لا يملك معها خلاصاً أو فكاكاً، فلا يجد أمامه إلا الشعر ينفس فيه ملء صدره ليخفف عن نفسه بعض ما تنوء به من الحرمان اليائس الذى يعانيه، والخيال الواهم الذى يعيش فيه، والأمل الحالم الذى يعيش له، والأحزان السود التى تستبد به، والحنين الجارف الذى يملأ عليه أرجاء نفسه. ووسط هذا الخضم المتلاطم من الآمال يحيا العاشق وكأنه ضائع فى هذه الحياة، أو كأنه فى حلم عميق مسيطر على مشاعره، متمسكاً بحبه الضائع، متشبثاً بمحبوبته التى أبت الحياة أن تحقق أمله فيها، لا يدفعه شعوره بالحرمان واليأس إلى السلو والنسيان أو التماس السعادة فى حب جديد، لأنه يرى فى محبوبته مثله الأعلى فى الحياة، وإذا كان الواقع قد حال بينهما ففى عالم الأحلام والأوهام مجال لحياة لا يحول بينهما فيها حائل، ولا تملك أية قوة فى الأرض أن تفرق بينهما. ثم تكون النهاية مأساة حزينة فى أكثر الأحيان، نرى فيها العاشق مشرداً فى الصحراء، يطوّح به الحب فى أرجائها فلا تعرف مذاهبه، أو نراه وقد استبد

به الحب، وسيطر على مشاعره، حتى اضطربت أعصابه، واختلط عقله، أو نراه معتلاً مدنفاً أضناه الوجد، وأسقمه الحنين، وأذواه الحرمان، وقد تكون النهاية في بعض الأحيان على غير هذه الصورة الحزينة، نرى فيها العاشق وقد تمالك نفسه بعد ضياع الأمل من يديه، واستطاع أن يتجلد للصدمة العنيفة التى حلت به، ولكن خيال محبوبته البعيدة لا يفارقه، وذكريات حبها بكل ما فيها من نعيم وشقاء، ومن وصل وهجر، ومن أمل ويأس، تعيش معه فى قلبه الذى بين جنبيه، يداريها حيناً، ويصرح بها فى أكثر الأحيان شعراً يفيض حزناً، ويقطر لوعة، ويسيل دموعا، ويذوب حسرات. ثم ينتهى الأجل المكتوب، ويسدل الستار على المأساة الحزينة الباكية.

على هذه الصورة كانت مأساة المرقّش الأكبر وابنة عمه أسماء، وهما من بكر بن وائل، وهى مأساة تشبهها إلى حد كبير مأساة عروة وعفراء التى شهدتها أرض عذرة فى صدر العصر الإسلامى قبل أيام بنى أمية. أحب المرقش أسماء وهى صغيرة وأحبته، ونما الحب فى قلبيهما، ثم خطبها إلى أبيها، فأخذ يماطله ويعده فيها المواعيد، ولعله لم يكن يراه كفؤاً لابنته، إذ يذكر الرواة أنه قال له: لا أزوجك حتى تُعْرَف بالبأس وتزور الملوك.وكان أبوها عوف بن مالك من فرسان بكر المعدودين، وكذلك كان

أخوه عمرو بن مالك، وهو الذى أسر مهلهل بن ربيعة أخا كليب فظل فى أسره حتى مات.

وانطلق المرقش يبنى مستقبله ويرفع من شأنه حتى يكون جديراً بابنة عمه المحبوبة، فاتصل ببعض الملوك يمدحهم، وينال جوائزهم. ثم عاد إلى وطنه بعد سنين ليفاجأ بنبأ أذهله وجعل كل آماله تتهاوى فى يأس قاتل وحزن مميت. لقد كان فى انتظاره نبأ موت صاحبته التى تغرّب عن وطنه تلك السنين من أجلها، ودلوه على قبر قالوا له إنه قبرها. وارتبطت أيامه بهذا القبر يندب عنده حظه، ويبكى آماله، ويذوب كمداً وحزناً فوق أحجاره الصامتة. ثم تكون المفاجأة المذهلة حقًّا، لقد ترامى إلى سمعه ذات مرة أن أسماء لم تمت، وإنما تزوجها أحد سادة مراد الأثرياء فى أثناء غيبته بعد أن أطمع أباها فى ماله الكثير، وأن نبأ موتها مفتعل، افتعله إخوته ليخفوا عنه الحقيقة المرة، ويتفادوا ما تجره وراءها من أحداث.

وينطلق المرقش إلى ديار مراد فى صحبة عبدين له، ولكن داءً عضالا يحل به فى الطريق، وييأس منه العبدان، ويقطعان الأمل من شفائه، ويظنان به الموت، فيخلفانه فى كهف بأرض مراد، ويعودان إلى أهله ليعلنا لهم أنه قد مات. ثم يتبين أخ له الحقيقة، لقد سجل المرقش قصته مع العبدين فى أبيات كتبها على رحله فقرأها أخوه الذى ينطلق نحو أرض

مراد باحثاً عنه بعد أن يقتل العبدين. وهناك عند الكهف يعلم أنه قد حُمِل إلى أسماء. لقد وردت على الكهف غنم عرف المرقش من راعيها أنها غنم المرادى زوج أسماء، فاحتال على الراعى حتى طرح خاتمه فى اللبن الذى تحمله إلى أسماء جاريتُها كل مساء.... نفس الأسلوب الذى اتبعه عروة بعد ذلك حين نزل ضيفاً على زوج عفراء بالشام. وتعرف أسماء خاتم حبيبها القديم، وتعرف من الراعى موضعه بالكهف، وأنه تركه يعانى سكرات الموت، فتسرع هى وزوجها إليه ليعودا به إلى بيتهما.

وفى أرض مراد حيث استقرت حبيبته يلفظ المرقش أنفاسه الأخيرة بعد أن يودع الحياة بأبيات من الشعر يصور فيها حيرته، وآماله الضائعة، وماضيه الجميل الذى قطعت عهوده ومواثيقه إلى الأبد.

وعلى هذه الصورة أيضاً كانت مأساة عمرو بن كعب بن النعمان الملك وابنة عمه عُقيلة. نشأ معها فى بيت أبيها بعد وفاة أبيه، وربط الحب بين القلبين الصغيرين، حتى إذا ما كبرا تقدم إلى أبيها يطلب عونه لما كان بين أسرتيهما من صلة. ثم يبلغه أن عمه زوّج عقيلة لأحد بنى فزارة، وتكون صدمة له لا تقوى على احتمالها أعصابه فتنهار، وينطلق إلى الصحراء ذاهلاً عن كل شئ ليهيم على وجهه فى إقليم اليمامة، وقد ُشدّ بصره إلى السماء ، حتى تدركه منيته فى تيه لم يُعْرَف مكانه فيه. وفى بيت الفزارى

تعيش عقيلة- كما يذكر الرواة - عذراء، وتنهار أعصاب زوجها، فيخرج هو أيضاً إلى الصحراء هائماً على وجهه فلا يُدْرَى أين مذهبه.

وتعود عقيلة إلى بيت أبيها تندب حظها، وتبكى مأساتها، وتدب الأدواء والأسقام فى جسدها حتى تذويه وتضنيه، ثم يضمها الموت إليه لتحلق بحبيبها فى العالم الآخر.

وعلى نحو من هذه الصورة أيضاً كانت مأساة عبد الله بن علقمة وابنة عمه حُبَيْشة، وكلاهما من بنى عامر بن عبد مناة. ربط الحب بين قلبيهما وهما صغيران، فقد خرجت به أمه وهو غلام لتزور أم حبيشة وكانت جارة لها، وهناك رآها فأعجبته، وانطلقت سهام الحب لتجمع بين القلبين فى قصة غرام عنيف لم تفلح جميع المحاولات التى قام بها أهله وأهلها فى وضع حد له. لقد هام كل منهما بصاحبه، وأخذ يقول فيه الشعر، وكان كلاهما شاعراً، وحال أهلها بينهما، ولكن هذا لم يزدهما إلاغراماً، فأخذا يتبادلان الرسائل والأشعار. ثم تتعرض قبيلتهما لغزوة قام بها خالد بن الوليد رضى الله عنه بأمر النبى صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة. ويقع ابن علقمة أسيراً فى أيدى المسلمين، وتقع حبيشة كذلك، ويساق هو لتُضْرب عنقه، فيطلب أن يراها قبل أن يلقى مصرعه، ويتناول

يدها فى يده وهو ينشدها شعره، حتى إذا ما ضربت عنقه وضعت حبيشة رأسه فى حجرها، وجعلت ترشفه وتبكيه بأبيات لها ظلت ترددها حتى لفظت أنفاسها الأخيرة.

وعلى نحو من هذه الصورة العامة كذلك كانت مأساة عبد الله بن العجلان وهند، وكلاهما من نَهْد من قُضاعة. وهى أقرب مأساة جاهلية إلى مأساة قيس بن ذريح ولبنى، وأشدها شبهاً بها.رأى عبد الله هندا على بعض المياه فأحبها، ثم مضى إلى أبيها فخطبها، وتحقق له أمله فتزوجها، وعاش معها بضع سنين كأسعد ما يكون حبيبان ربط بينهما رباط الزوجية المقدس. ولكن القدر أبى عليهما السعادة التى ينعمان بها، فقد كانت هند عاقرا، وكان عبد الله وحيد أبويه، وكان أبوه سيداً من سادات قومه المعدودين، ومن أكثرهم مالاً وأوسعهم ثراء، فطلب إليه أن يطلقها ويتزوج غيرها عسى أن ينجب منها من يحفظ على الأسرة مالها وكيانها. وأبى عبد الله، وتحرجت الأمور بينه وبين أبيه الذى أقسم أن لا يكلمه حتى يطلقها، وتمسك عبد الله بزوجه الحبيبة، ولكن أباه جمع عليه أعمامه وأبناء أعمامه، وما زالوا به حتى ضعف أمامهم فانفصل عنها. وما إن نفذ السهم حتى أسف عليها، وندم على فراقها، واشتد حزنه وجزعه من أجلها. ثم تزوجت هند فى بنى نمير، فضاقت السبل فى وجه عبد الله، وانهارت أعصابه، واصطلحت على جسده العلل والأدواء. وعرض عليه أهله فتيات

الحى لعل إحداهن تعجبه فتنسيه صاحبته الأولى، ولكنه رفض الزواج. وقضى عبد الله بعد ذلك حياته يبكى حبه القديم، وفردوسه المفقود، وسعادته الضائعة، حتى مات حزناً عليها، وأسفاً على أمل كان بين يديه ثم فرّط فيه فضاع منه إلى الأبد.

وأشهر قصص " المتيمين" الجاهليين قصة عنترة وعبلة، وهى قصة تستمد شهرتها من ناحيتين: من شهرة صاحبها الفارس الشاعر البطل، ثم من القصة الشعبية التى دارت حولها.

وعلى الرغم من شهرة هذه القصة، وعلى الرغم من ضخامة القصة الشعبية التى دارت حولها وكثرة التفاصيل والحواشى بها، فإن المصادر القديمة لا تمدنا بكثير من تفاصيلها، ولكنها - فى إطارها العام- قصة ثابتة لا شك فيها بدلالة شعر عنترة الذى يفيض بأحاديث حبه وحرمانه.

نشأ عنترة العبسى من أب عربى هو عمرو بن شداد، وكان سيداً من سادات قبيلته، وأم أجنبية هى زبيبة الأمة السوداء الحبشية، وكان أبوه قد سباها فى بعض غزواته. وسرى السواد إلى عنترة من أمه، ورفض أبوه الاعتراف به، فاتخذ مكانه بين طبقة العبيد فى القبيلة، خضوعاً لتقاليد المجتمع الجاهلى التى تقضى بإقصاء أولاد الإماء عن سلسلة النسب الذهبية التى كان العرب يحرصون على أن يظل لها نقاؤها وعلى أن يكون

جميع أفرادها ممن يجمعون الشرف من كلا طرفيه: الآباء والأمهات،إلاّ إذا أبدى أحد هؤلاء الهجناء أمتيازاً أو نجابة فإن المجتمع الجاهلى لم يكن يرى فى هذه الحالة ما يمنع من إلحاقه بأبيه. وحانت الفرصة لعنترة فى إحدى غارات طيئ على عبس، فأبدى شجاعة فائقة فى رد المغيرين، وانتزع بهذا اعتراف أبيه به، واتخذ مكانه فارساً من فرسان عبس الذين يشار إليهم بالبنان.

ووقف طفل الحب الخالد يلقى سهامه النافذة ليجمع بين قلب عنترة وقلب ابنة عمه عبلة بنت مالك . ويتقدم عنترة إلى عمه يخطب إليه ابنته، ويقف اللون والنسب مرة أخرى فى طريقه، فقد رفض مالك أن يزوج ابنته من رجل يجرى فى عروقه دم غير عربى، وأبت كبرياؤه أن يرضى بعبد أسود- مهما تكن شجاعته وفروسيته- زوجاً لابنته العربية الحرة النقية الدم الخالصة النسب، ويقال إنه طلب منه- تعجيزاً له وسدًّا للسبل فى وجهه- ألف ناقة من نوق الملك النعمان المعروفة بالعصافير مهراً لابنته، ويقال إن عنترة خرج فى طلب عصافير النعمان حتى يظفر بعبلة، وإنه لقى فى سبيلها أهوالاً جساماً، ووقع فى الأسر، وابدى فى سبيل الخلاص منه بطولات خارقة، ثم تحقق له فى النهاية حلمه، وعاد إلى قبيلته ومعه مهر عبلة ألفاً من عصافير الملك النعمان. ولكن عمه عاد يماطله ويكلفه من أمره شططا، ثم فكر فى أن يتخلص منه، فعرض ابنته على فرسان القبائل

على أن يكون المهر رأس عنترة، ثم تكون النهاية التى أغفلتها المصادر القديمة وتركت الباحثين عنها يختلفون حولها، فمنهم من يرى أن عنترة فاز بعبلة وتزوجها، ومنهم من يرى أنه لم يتزوجها، وإنما ظفر بها فارس آخر من فرسان العرب.

وفى أغلب الظن أن عنترة لم يتزوج عبلة، ولكنه قضى حياته راهباً متبتلاً فى محراب حبها، يغنى لها ويتغنى بها، ويمزج بين بطولته وحبه مزاجاً رائعاً جميلاً. وهو يصرح فى بعض شعره بأنها تزوجت وأن زوجها فارس عربى ضخم أبيض اللون، يقول لها فى إحدى قصائده الموثوق بها التى يرويها الأصمعى الثقة:

إما تَرَيْنِى قد نحلتُ ومن يكن   غرَضاً لأطراف الأسنة ينحلِ
فلربَّ أبلجَ مثل بعلك بادنٍ   ضخم علىَ ظهر الجواد مُهَبَّلِ
غادرتهُ متعفراً أوصاله   والقوم بين مُجَرَّح ومُجَدَّل[1]

لقد تزوجت عبلة من غير عنترة بعد ذلك الكفاح الطويل الذى قام به من أجلها، وأبى القدر أن يحقق للعاشقين حلمهما الذى طالما عاشا فيه. وعاش عنترة بعد ذلك عمراً طويلاً يتذكر حبه القديم، ويحن إلى أيامه

(١) غرضاً يعنى هدفاً. أبلج أبيض مشرق الوجه. مهبل : كثير اللحم ممتلئ الجسم. مجدل: قتيل.

الخالية، ويشكو حرمانه الذى فرضته عليه أوضاع الحياة وتقاليد المجتمع، وقد طوى قلبه على أحزانه ويأسه، وألقى الرماد على الجمرة المتقدة بين جوانحه، وهو رماد كانت ذكريات الماضى تلح عليه من حين إلى حين، فتكشف عن الجمرة التى لم تنطفئ جذوتها من تحته، حتى ودّع الحياة، وأسدل الموت الستار على قصة حبه الخالدة.

على نحو من هذه الصور كانت قصة الحب الخالدة التى ربطت بين كل قلبين من قلوب هؤلاء" المتيمين" الذين أفنوا عمرهم شموعاً تحترق فى هيكل الحب، حيث تعلّق كل منهم بمثل أعلى رآه فى حبيبة أخلص لها، وقضى حياته يسبح لها وحدها لا يشرك بها حبيبة أخرى، وهى قصة لا تختلف فى شئ عن قصة الحب الخالدة التى رأيناها عند " العذريين " الإسلاميين، حتى ليصح القول إن ظاهرة الحب العذرى بعد ظهور الإسلام ليست إلا امتداداً طبيعيًّا " للمتيمين" الجاهليين.

٥

مع كل قصة من قصص هؤلاء " المتيمين" وصل إلينا شعر يسجلها، ويتغنى بها، ويعبر عن عاطفة الحب الصادقة الثابتة التى عاش لها هؤلاء العشاق تعبيراً على حظ غير قليل من الرقة والصفاء، ويصور ذلك العالم الخيالى الحالم الذى عاشوا فيه بما يتنازعه من آمال وآلام، وبما يضطرب فيه من حيرة ويأس وقلق، وحرمان وحنين وأحزان، وتشبث بالمثل الأعلى البعيد المنال الذى حالت الحياة دون الوصول إليه.

ومن الحق أن مجموعة الشعر التى وصلت إلينا من هؤلاء المتيمين قليلة بالنسبة لما وصل إلينا من شعر العذريين، ولكن هذا شأن الشعر الجاهلى كله، ذلك الشعر الذى لم يصل إلينا منه ـ كما يقول القدماء ـ إلا أقله. ومن الحق أيضاً أن هذه المجموعة لا تمثل قصة الحب التى عاشها أصحابها بكل جوانبها وتفاصيلها كما نرى فى شعر العذريين الأمويين، ولكن هذا يرجع ـ فى أغلب الظن ـ إلى ضياع كثير منها. ومن الحق بعد ذلك أن المستوى الفنى لشعر المتيمين ـ إذا استثنينا عنترة ـ لا يصل إلى تلك القمة الفنية العالية التى وصل إليها شعر العذريين، ولكن هذا لا يرجع إلى ضعف العاطفة عند المتيمين عنها عند العذريين، فالمستوى العاطفى عند كليهما واحد، ودرجة الانفعال فى نفوس الطائفتين واحدة، ولكنه يرجع إلى

سنة التطور، فالمتيمون الجاهليون هم طليعة الاتجاه، صاغوا شعرهم على غير نماذج سابقة، ثم خلّفوه لمن جاء بعدهم من العذريين نماذج يحتذونها ويطورونها وينهضون بفنهم الشعرى على مثالها. وفيما عدا ذلك فشعر المتيمين فى اتجاهه العام وفِى صورته الثابتة هو نفسه شعر العذريين، أو ـ بعبارة أدق ـ هو الخطوة الأولى فى هذا الاتجاه الذى سار فيه العذريون بعد ذلك، أو هو الخطوط المميِّزة لهذه الصورة التى استغلها العذريون واعتمدوا عليها فى تطوير فنهم ، والنهوض به، والوصول به إلى تلك القمة العالية التى وصلوا إليها. فالاتجاه العام لشعر المتيمين هو ذلك الاتجاه الصراعى الذى يسجل جوانب المأساة التى يعيشها أصحابه، والذى رأيناه من قبل فى شعر العذريين، والصورة الثابتة له هى تلك الصورة المثالية التى يعيش أصحابها فى عالم خلقوه لأنفسهم، وهى نفس الصورة التى رأيناها أيضاً عند العذريين.

يقول المرقش الأكبر مصوراً حيرته النفسية وما يعانيه معها من قلق وعذاب وألم وهموم:

أغَالِيْكَ القلبُ اللجوج صبابةً ... وشوقاً إلى أسماءَ أم أنت غَالِبُهْ؟
يهيم ولا يَعْيَا بأسماءَ قلبُه ... كذاك الهوى إمراره وعواقبه
وأسماءُ همّ النفس إن كنتَ عالماً ... وبادى أحاديث الفؤاد وغائبه

إذا ذكرَتها النفسُ ظلْتُ كأنني يزعزعني قفقاف ورْد وصَاليُه[1]

فهو محيَّر القلب فى حبها، يعانى من ذلك الصراع الحاد العنيف الذى يعانى منه كل عاشق من المتيمين ومن العذريين. لقد أصبحت أسماء كل شىء فى حياته، إنها أمله الذى يرتجيه ونجوى فؤاده التى يعيش معها، وإنه ليذكرها فيضطرب جسده وتأخذه الرِّعدة من كل أطرافه كأنما مسَّته حمى شديدة، إنها نار تحرق جوانحه، ولكنه - مع ذلك- يحبها ولا يستطيع نسيانها أو السلو عنها، لقد غلبه حبها وانتصر عليه فى ذلك الصراع المستعربين عقله وقلبه، وهو صراع ليست له دائماً سوى نتيجة واحدة، هى غلبة القلب وانتصاره، ووقوف العاشق عاجزاً أمام سهام الحب تنهال عليه من كل جانب فلا يملك لها دفعاً ولا ردًّا، تلك السهام التى صور ابن العجلان فعلها فى نفسه فى هذين البيتين:

لقد كنت ذا بأس شديد وهمة إذا شئتُ لمساً للسماء لَمَسْتُها
أتتنى سهامٌ من لحاظٍ فأرشَقَتْ بقلبى، ولو أسطيع رَدًّا رَدَدْتُها

إنها شكوى العاشق الجريح الذى تتساقط عليه سهام العيون لتستقر فى قلبه، بل هى وثيقة استسلام للمحبوبة يوقّعها العاشق معترفاً بهزيمته فى

---

[1] إمرار الهوى: مرارته أو شدته. الورد، بكسر الواو، الحمى. والقفقاف: الرعشة. والصالب: شدة الحرارة مع رعدة.

ميدان الحب بعد أن كان قبل لقائها شديد البأس بعيد الهمة. لقد أصبح أسيراً في يديها لا يملك من أمر نفسه شيئاً، وهو أسر كان كل عاشق من المتيمين والعذريين على السواء يشعر بأنه يقضي فيه شبابه، بل حياته كلها، وليس له من أنيس فيه سوى ذكريات ماضيه يحملها إليه الليل على أجنحته الحالمة، فتذوب لها مهجته، وتسيل دموعه، على نحو ما يصور عمرو بن كعب في هذين البيتين:

إذا جن ليلٌ فاضت العين أدمعا على الخد كالغدران أو كالسحائب
وما أسفي إلاّ على ذَوْب مهجتي ولم أدر يوماً كيف حال الحبائب

وكما كانت هذه الذكريات تُسيل الدموع من عيني عمرو على عقيلة، وتنتزع الزفرات الحارة من صدره، كانت تُدير بالمرقش الأصغر الأرض، وتشرده في البلاد خلف محبوبته فاطمة التي لم يكن يرى في النساء من تُسَلِّيه عنها أو تنسيه حبها:

صحا قلبه عنها على أن ذِكْرَةً إذا خَطَرَتْ دارتْ به الأرض قائمَا
أفاطم لو أن النساء ببلدة وأنت بأخرى لا تَّبِعْتُك هائما

لقد سيطر حبها على نفسه فهو لا يستطيع عنها بعداً، ولا يملك - إذا ما غابت عنه - عزاء يتسلى به عنها ، ولا صبراً يخفف من أحزانه، يقول عبدالله بن علقمة:

إذا غُيِّبَـتْ عنـى حبيْبَتـة مـرةً   من الدهر لم أملك عزاءً ولا صبْرَا

ومن هنا كـان أشد ما يخشاه العاشق الفراق الذى يباعد بينه وبين محبوبته، بل يباعد بينه وبين الحياة، فإذا هو صريع أحزان تهصر فؤاده هصراً، وهى أحزان كان قيس بن الحدادية يتخيّل قلبه تحت وطأتها كأنه بين شقين من عصا لا يزالان يضغطان فى قسوة وعنف حتى يقضيا عليه:

كأنّ فؤادى بين شقّين من عصا   حِذَارَ وقوع البين، والبينُ واقـعُ

ووسط هذا الخضم المتلاطم من الأحزان كانت أعصاب العاشق تنهار حتى ليتمنى أن يلقى الموت قبل أن يفرق البين بينهما، وما قيمة الحياة إذا ما استبدت بصاحبته النوى فخلّفته وحيداً يستقبل أحزانه القاتلة وهمومه الطاحنة؟ يقول قيس أيضاً:

فليت المنايا صبّحَتْنى غُدَيَّـةً

بأسفل وادى الدَّوْح أنْ لا تلاقيا

إذا ما طواك الدهر يا أم مالك   فشأن المنايا القاصدات وشانيا

ومع هذه الأحزان والهموم كان الحرمان الذى يقضى العاشق حياته وسط صحرائه المجدبة القاحلة حيث لا ظل ولا ماء، وإنما سراب يترامى هنا وهناك يحمل معه أملاً خدّاعاً فى أن تجمع الحياة بينه وبين صاحبته فى يوم من الأيام، وهو أمل صوّره قيس أيضاً فى هذا البيت:

وإنــى لعهــد الـــود راعٍ ، وإننـــى   بوصلك ـ ما لـم يطونـى الموتُ ـ طـامعُ

إنه الأمل الحلو الـذى كـان يعيش عليـه هـؤلاء المتيمـون، والـذى كـان يداعب نفوسهم الحزينة الضائعة فيرد عليها شيئاً من الرضا، ويكشف عنهـا شيئاً من ظلمات اليأس المتكاثفة حولها.

ومع ذلك لم يتحقق لأى عاشق مـن هـؤلاء المتيميـن هـذا الأمـل، وإنمـا ظلـت المسـألة منـى يتمناهـا، وتحـول الحيـاة بينـه وبينهـا تاركـة لـه اليـأس والحرمان، وحسبه من الحب خيال يحيا فيه، ووهم يحيـا عليـه. إنـه الحـب المجرّد من كل غرض، أو هو حب الحب للمحب الـذى عـزّ علـى عبداللـه بن علقمة مخاطباً صاحبته حبيشة:

ولـم يــك حبــى عــن نــوال بذلتــه   فيُسْـلِينى عنـــه التجهـمُ والهجـــرُ

إنه يحب فيها الحب نفسه، ولا يريد أن يخلـط بهـذا الهـدف المجـرّد أى هدف آخر، وإنما يريد أن يكون حبه خالصاً لوجه الحـب وحـده فـى العـالم المثالى الذى خلقه لنفسه وارتضاه لها.

ويقف عنترة بين هؤلاء المتيمين ممثّلاً لمذهب خاص فى الغـزل انفـرد به، دفعته إليه ظـروف حياتـه الخاصـة، وطبيعـة شخصيته المتمـيزة، فهـو

عاشق متيم مثلهم، أحب واحدة وأخلص لها كما أحبوا وأخلصوا، وقضى حياته خلفها يعانى من اليأس الذى كانوا يعانون منه، ومن الحرمان الذى كانوا يعيشون فيه، واتخذ من شعره كما اتخذوا مجالاً يتنفس فيه، ويخفف عن نفسه ما تفيض به من أحزان وهموم، ولكنه-إلى جانب ذلك - فارس عبس الأول وحامي ذمارها، فالفروسية مستقرة فى أعماقه مقوّماً أساسيًّا من مقوّمات شخصيته فلا يستطيع أن ينفصل عنها لا فى حياته ولا فى شعره، فكما كان شعره مجالاً يتغنى فيه بحبه ولوعته، كذلك كان مجالاً يتغنى فيه بفرسيته وبطولته. ومن هنا امتزجت أحاديث الحب واللوعة بأحاديث الفروسية والبطولة في شعره، وأضفى الحب اليائس المحروم على فروسيته ألواناً من الوجد واللوعة، كما أضفت فروسيته العاملة البناءة على حبه ألواناً من القوة والكبرياء والحياة فجاء شعره مزاجاً طريفاً من اللونين، ونموذجاً فريداً فى الشعر الجاهلى.

وهب عنترة حياته وفنه لشيئين: لفروسيته وبطولته من ناحية، ولعبلة وحبها من ناحية أخرى، وعاش يوقّع على هذين الوترين ألحاناً رائعة طريفة يمتزج فيها الحب بالحرب، واليأس بالأمل، والرقة بالقوة، والضراعة بالكبرياء، والدماء التى تنزف من قلبه بالدماء التى تنزف من قلوب أعدائه، واتخذ من عبلة سيدته الأولى، يضع بين يديها- أو تحت أقدامها- مفاخره وأمجاده، ويقدم لها شجاعته وفتوته، تحية وقرباناً، ويجعل

خيالها دائما أمامه نوراً يهتدى به فى طريقه، وحافزاً يدفعه إلى جلائل الأعمال ومحمود الفعال. يقول لها مرة:

سلى يا عَبْلَ قومك عن فعالى ... ومَنْ حضر الوقيعة والطِّرادا
وردتُ الحربَ، والأبطال حولى ... تهز أكفُّها السُّمْرَ الصِّعادا
وخُضتُ بمهجتى بحر المنايا ... ونارُ الحرب تتَّقد اتقادا
وعدتُ مُخضبَّا بدم الأعادى ... وكرُّ الحرب قد خضَبَ الجوادا[1]

ويقول لها أخرى:

يا عبلَ لولا أن أراكِ بناظرى ... ما كنتُ ألقى كل صعب مُنْكَرِ
يا عبل كم من غمرة باشرتها ... بمُثَقَّف صلب القوائم أسمر
يا عبلَ هل بُلغت يوماً أننى ... وليتُ منهزماً هزيمة مدبر
يا عبلَ دونك كلّ حى فاسألى ... إن كان عندكِ شبهة فى عنترِ

فهو يفتخر ببطولاته وانتصاراته، ويقدمها مهراً لحبها، وقرباناً يتقرب به إليها، ويجعلها هى القوة الدافعة له إلى الأمام التى يقوم من أجلها بكل شىء، ويخوض فى سبيلها الغمرات والمخاطر، لعلها تعجب به، وترضى

---

[1] الوقيعة : القتال، مفرد وقائع . والطراد: المطاردة، مصدر طارد. والسمر: الرماح. والصعاد: جمع صعدة وهى القناة المستوية، يريد بها الرماح.

عنه، ويلين له قلبها. وهو لا يطلب منها إلا أن تنظر إليه بعين الرضا، وتراه على حقيقته، فهو بطل شجاع رهيب، خبير باصطياد الفرسان الأشداء، مر الطعم إذا ظُلم، أما إذا لم يُظلم فإنه لين الجانب، رقيق الحاشية، لطيف المعاشرة، حسن المعاملة:

إن تُغْدِ فى دونى القناع، فإننى طبٌّ بأخذ الفارس المُسْتَلِئِم
أثْنِى علىَّ بما علمت، فإننى سمْحٌ مخالقتى إذا لم أُظلم
فإذا ظُلمتُ فإن ظلمىَ باسل مرٌّ مذاقته كطعم العلقم[1]

وتستطيع أن تسأل عنه من تشاء إذا لم تكن تعلم حقيقته، فالكل يعرفونه، ويعرفون أخلاقه، ويعرفون إقدامه فى الحرب وعفته عند توزيع الغنائم:

هلاَّ سألتِ القوم يا ابنة مالك إنْ كنتِ جاهلة بما لم تعلمى
يخبرك مَن شهد الوقيعة أننى أغشى الوغى وأعفّ عند المَغْنَم

---

(1) أغدفت القناع: أرخته على وجهها. طب: خبير حاذق. المستلئم: الذى يلبس اللأمة وهى الدرع. المخالقة: المعاملة، ويروى: مخالطى أى معاشرتى.

فـأرى مغـانمَ لـو أشـاء حَوَيتُهـا   فيصدنـي عنهـا الحيـا وتكرّمـي

فهو رجل نبيل الخلق، عفيف النفس، كريم السجايا، وهو فوق ذلك كله وفيٌّ لصاحبته، مخلص لها، لا ينظر إلى سواها، ولا يبغى غيرها، بل إنه طَوْع أمرها، ورهن إشارتها، يتمنى أن يكرس حياته وشجاعته لها، فيرد عنها الأذى ويبسط عليها ظل حمايته، ولا يأتى من الأمور إلاّ ما يرضيها، وهى تعرف عنه كل ذلك، ففيم الصدود والهجر؟

إنـى امـرؤ سَـمْح الخليقـة مـاجد   لا أتْبـعُ النفـس اللَّجُـوج هواهـا

ولئـن سـألتَ بذالـك عبلـةَ أخـبرتْ   أنْ لا أريـدُ مـن النسـاء سـواها

وأجيبهـا إمـا دعـتْ لعظيمـة   وأعينهـا، وأكُـفّ عمـا سـاها[1]

وهو يعجب من هجرانها له بعد ذلك وصدها عنه، وكيف لا تبادله بحبه العظيم الذى يحمله لها فى قلبه حباً مثله، وكم من فتاة أجمل منها وأملح تتمنى وصله وحبه، ولكن حبه لها غَشيٌ على بصره فتركه لا يفكر فى أن يصل حبله بغيرها. إنه يريد أن يستثير غيرتها الكامنة فى أعماقها، بل فى أعماق كل حوّاء:

لا تَصْرمينـى يـا عُبَيْـلَ، وراجعـى   فـىّ البصـيرة نظـرة المتـأمّل

فـلرُبَّ أملـحَ مَنـك دَلا فـاعلمى   وأقـرّ فـى الدنيـا لعيـن المجتلـى

---

(1) ساها يعنى ساءها، خففت الهمزة ثم حذفت للضرورة.

وَصَلَتْ حبالي بالذى أنا أهله   من ودها، وأنا رَخِيُّ المِطْول
يا عبل كم من غمرة باشرتُها   بالنفس ما كادت لَعَمْرُك تنجلي
فيها لوامعُ لو رأيت زُهاءها   لسلوتِ بعد تخضُّبٍ وتكحُّل[1]

إنه يحبها ولا يغيب خيالها عن خاطره، حتى عند ما يشتد القتال، وتحتدم الوقيعة، ويحمى وطيس الحرب، وتأخذ الدماء تسيل من جراحه من طعنات الرماح وضربات السيوف، فإن ذكراها تستبد به، وصورتها تتراءى له، بل إنه يرى فى كل وميض سيف شبهاً لا بتسامتها المشرقة، فيتمنى لو استطاع تقبيل هذه السيوف التى تلمع كثغرها الباسم:

ولقد ذكرتُكِ، والرماح نواهل   منى، وبيضُ الهند تَقْطُرُ من دمى
فوددْتُ تقبيل السيوف لأنها   لمعتْ كبارق ثغرك المتبسِّم

وهو حب ظل يملأ عليه نفسه حتى آخر رمق من حياته، وظلت عبلة الحبيبة وخيالها وذكرياتها تلح عليه حتى وهو يجود بأنفاسه الأخيرة، بل إن الحرمان الذى كان يعيش فيه بعد زواجها هوّن عليه الحياة، وجعله يستقبل الموت غير آسف على الحياة، ولا شيء يشغله إلاّ مصير عبلة من بعده،

---

(1) المجتلى: الناظر. والمطول: الحبل، ويريد بقوله رخى المطول أنه لم يصل حبله بها. والزهاء: الكثيرة.

وافتقادها حمايته بعد أن يسدل الموت ستاره عليه، ويحول بينه وبين حماية سيدته الأولى التى عاش لها، ومات وهو يذكرها:

فالقتلُ لى من بعد عبلة راحة ... والعيش بعد فراقها منكودُ
ياعبلَ قد دنت المنية فاندبى ... إن كان جفنك بالدموع يجود
ياعبل إن تبكى علىّ فقد بكى ... صَرْفُ الزمان علىّ وهو حسود
ياعبل إن سفكوا دمى ففضائلى ... فى كل يوم ذكرهنّ جديد
لهفى عليك إذا بقيت سبيّة ... تدْعينَ عنترَ وهو عنك بعيد

على هذه الصورة كانت قصص "المتيمين" في العصر الجاهلى، وهى صورة لا تكاد تختلف عن قصص "العذريين" فى العصر الإسلامى والعصر الأموى. ومن الممكن أن تكون بعض التفاصيل فى هذه القصص الجاهلية من وضع الرواة المتأخرين، تلبيةً لحاجات السمر والتسلية، أو ادعاءً للعلم وسعة المعرفة، أو تقليدا لبعض التفاصيل فى قصص العذريين الإسلاميين والأمويين، ولكن الأمر الذى لا شك فيه هو أن هذه القصص فى مجموعها، من حيث إنها تمثل ظاهرة اجتماعية فى المجتمع الجاهلى، لا يمكن أبداً أن تكون فى جملتها وتفصيلها من وضع هؤلاء الرواة تقليداً لقصص العذريين بعد الإسلام. فالحب قديم قدمِ الحياة الإنسانية نفسها، والحب العفيف الذى لا ينال العاشق فيه حظه من الحياة ليس وقفاً على العرب وحدهم دَون غيرهم مِن الشعوب، والحب العذرى فى صورته

الخاصة التى رأيناها فى البادية العربية بعد ظهور الإسلام ليست صورة خاصة بالعصر الأموى وحده، لأنها - فى وضعها الصحيح - صورة من الحب العفيف الذى تعرفه كل الشعوب، طبعتها بيئة البادية العربية بطوابعها المميزة، ولوّنتها طبيعة الحياة الاجتماعية فيها بألوانها الخاصة، فهى - كما قلنا- حب البادية العربية فى صورته الأصيلة، خلقته تقاليدها ومُثُلها وظروف الحياة الطبيعية والاجتماعية فيها

وفى شعر العذريين الأمويين - بعد ذلك - إشارات غير قليلة إلى هؤلاء المتيمين الجاهليين ومن امتد بهم الأجل إلى ما بعد ظهور الإسلام الذين كانون يرون فيهم ُمثُلاً يتأسون بها فى الرضا بالحرمان، والصبرعلى آلام الوجد وتباريح الصبابة، والاستسلام لهذا القدر المقدور الذى قضاه الله عليهم . يقول قيس بن ذريح:

وفى عروة العذرىّ إنْ متُّ أسْوةٌ ... وعمرو بن عجلانَ الذى قَتَلَت هندُ
وبى مثْل ما ماتا به غير أننى ... إلى أجل لم يأتنى وَقْتُهُ بَعْدُ

ويقول أيضاً، وتنسب لجميل ولقيس بن الملوّح:

وما وَجدَتْ وجدى بها أمٌ واحد ... ولا وَجد النهدىُّ وجدى على هِنْدِ
ولا وجد العذرىُّ عروة إذ قَضَى ... كوجدى، ولا من كان قبلى ولا بعدى

ويقول جميل:

وعــاذلون لحَوْنـــى فـــى مودتهــا   يـا ليتهم وجدوا مثــل الــذى أجِـدُ
لمـا أطـالوا عتـابى فيك قلـت لهـم: لا تفرطوا،بعض هذا اللوم، واقتصـدوا
قد مات قبلى أخـو نَهْد، وصاحبـه   مرقِّش، واشتفى مـن عـروةَ الكَمَـدُ
وكلهــم كــان مـــن عشـــق منيَّتـــه   وقد وجدتُ بهـا فـوق الـذى وجـدوا
إنـى لأَرْهبُ، أو قـد كـدتُ أعلمــه   أنْ سوف تُوردنـى الحوض الذى وجدوا
إن لـم تنلنـى بمعـروف تجـود بـه   أو يَدْفـع اللـه عنـى الواحـدُ الصَمَـدُ

فقضية المتيمين الجاهليين والإسلاميين ثابتة بشهادة العذريين الأمويين أنفسهم، وثبوت هذه القضية ينتهى بنا إلـى نتيجـة لا شـك فيهـا، أو- بعبـارة أصحاب القضاء- إلى حكم لا يقبل النقض، وهو أن الحب العذرى ليس ثمرة للحياة الأموية ، وليس له من هذه الحياة سوى اسمه فقط ، وإنما هو قديم منذ العصر الجاهلى، وثمرة للحياة الاجتماعية فى هذا العصر.

كان المجتمع الجاهلى مجتمعاً قَبَلِيًّا، يقوم على اســاس مـن وحـدة القبيلـة، سواء فى البادية أو فى المدن. ولم تكن حياة القبيلة فى هذا المجتمـع حيـاة معقدة، وإنما كانت حياة بسيطة قليلة الأعبـاء والتكـاليف، فهـى حيـاة تعتمـد أساسياً على الرعى والصيد والغزو، تتخللها فترات فراغ تطول فى الباديـة حيث تعتمد الحياة على الطبيعة، ويقضى البدو أوقاتاً طويلة فى انتظـار مـا

تجود به السماء عليهم من أسباب الحياة، حتى إذا ما اخضرت الأرض، وانتشرت المراعى، وانتجع البدو مواقع الغيث ومنابت الكلأ، عادوا مرة أخرى إلى فراغهم الطويل، وتقصر هذه الفترات فى المدن حيث تعتمد الحياة على الجهد الشخصى، ويصبح الوقت عنصراً له أهميته الكبيرة فى الحياة.

وقد استطاع الجاهليون أن يحلوا مشكلة الفراغ عندهم بثلاثة أشياء: الخروج إلى الصحراء للرحلة أو الصيد، والالتقاء بالرفاق لشرب الخمر أو لعب الميسر، والسعى خلف المرأة طلباً للهو والمتعة أو للحب والغزل. ولكن هذا الباب الأخير لم يكن مفتوحاً لهم على مصراعيه بسبب التقاليد الصارمة التى كانت تفرض سلطانها على المجتمع القبلى، وتأخذ فيه شكل المقدّسات التى لا يمكن التحلل منها. وكان "الشرف" أحد هذه التقاليد المقدسة، فلم يكن من اليسير على طلاب اللهو والمتعة أن يعبثوا فى المجتمع القبلى كيف يشاءون، والمجتمع يقف منهم موقف المتفرج، كما هو الشأن فى المجتمعات المتحضرة، وإنما كانت المسألة مسألة حساسة شديدة الخطر، لأن العربى كان ينظر إلى المرأة على أنها حُرْمَة من الحرُمات، عليه واجب المحافظة عليها، والدفاع عنها، وبحق سمّوها " حرمة" ، وبحق قالوا" كل امرئ يَذُبّ عن حريمه". ومن

هنا كثر الحديث عند شعراء الغزل اللاهى من أمثال أمرئ القيس عن الدبيب، ومخاتلة الأحراس، وزيارة المحبوبة فى وقت متأخر من الليل عند ما يهجع الرقباء وينام الأهل، والخروج بها إلى الأماكن النائية فى أعماق الصحراء بعيداً عن الحى، وتعفية آثار الأقدام على الرمال حتى لا يهتدى أحد إلى أماكن اللقاء. ومن هنا أيضاً أخذ القصص الغرامى عند هؤلاء الشعراء صورة المغامرة والمخاطرة التى تستدعى اصطحاب السيوف وحمل الأقواس والسهام. فلم تكن العربية فى هذا المجتمع مجالاً للهو السافر الصريح، وإنما كان مجال هذا اللهو إحدى اثنتين: الأمة التى لم يكن العربى ينظر إليها بعين القداسة التى كان ينظر بها إلى العربية الحرة، والقينة التى لم تكن تتمتع بتلك الحصانة التى كانت العربية تتمتع بها، والتى كانت تحترف فى هذا المجتمع الغناء والمنادمة على الشراب، وكلتا الاثنتين أجنبية غير عربية، فلم يقف المجتمع فى وجه من يريد اللهو بهما أو العبث معهما، ولم يأخذ قصص الشعراء عنهما صورة المغامرات الحذرة أو الجريئة، وإنما أخذ صورة " الباب المفتوح" لكل طارق، على نحو ما نرى فى شعر الأعشى مثلاً.

ومعنى هذا أن السبيل إلى العربية الحرة بنت القبيلة لم يكن ميسراً- لأصحاب اللهو والمتعة، وإنما كان محفوفاً بالأهوال والأخطار، بل كان فى أكثر الأحيان مغلقاً فى وجوههم. ومن هنا كثر فى الغزل القديم الحديث عن المحبوبة الممنّعة المحجّبة، أو المحبوبة التى لا يصل إليها العاشق ولا ينالها، كما كثرت أحاديث الحنين والشوق والحرمان والدموع والشكوى الحزينة اليائسة، وهى كلها أحاديث تعكس صورة صادقة للحياة العاطفية التى كان يحياها أبناء هذا المجتمع.

وطبيعى أن أى مجتمع- مهما تكن صرامة تقاليده- لا يستطيع أن يلغى من نفوس البشر عواطفهم، أو يمنع التيار العاطفى الجارى فى عروقهم من الجريان، ولكنه يستطيع أن يحد من نشاطه وتدفقه، أو يحوّل مجراه، أو يتحكم فيه وينظمه. ولم يكن المجتمع الجاهلى بدْعاً بين المجتمعات البشرية، فوقف فى وجه هذا التيار يحد من نشاطه اللاهى، ويحوّل مجراه إلى مجرى صاف نقى لا تكثر فيه الأعشاب ولا الأوحال، وإن كثرت فيه السدود الصناعية التى تخفف من سرعة التيار وشدة اندفاعه.

فى هذا المجرى الصافى النقى بما فيه من سدود صناعية انطلقت عواطف الشباب فى هذا المجتمع، فظهر الحب العفيف الطاهر الذى كانت القبائل تراه متنفساً طبيعيا لشبابها، وإن تكن لا

تشجع عليه ولا تباركه، وهو حب كان بعض الشباب- لأسباب شتى أهمها المزاج الشخصي- يبالغون فيه، ويفرغون له، ويمنحونه كل طاقتهم العاطفية، ويفسحون له المجال فى قلوبهم ليحتلها ويسيطر عليها ويستبد بها، حتى يصبح شغلهم الشاغل فى الحياة، بل حتى يصبح هو الحياة نفسها، وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم الرواة اسم "المتيمين" وقالوا إن الحب قتلهم، وهم الذين نراهم الطليعة المبكرة للحب العذرى كما عرفه مجتمع البادية العربية بعد الإسلام.

ظهر "المتيمون" فى العصر الجاهلى فى كلتا البيئتين:

بيئة البادية، وبيئة المدن، كما ظهر فيهما أيضاً الاتجاه الحسى اللاهى، أما بعد ظهور الإسلام مع استقرار الأمر لبنى أمية فقد تغيرت مراكز الحب عنها فى العصر الجاهلى، فانحصر الحب العفيف فى البادية، وانحصر الحب اللاهى فى المدن وخاصة مدن الحجاز، أو- بعبارة أدق- أصبح الحب العفيف اللون السائد فى بيئة البادية، واصبح الحب اللاهى اللون السائد فى بيئة المدن الحجازية.

فقد عملت عوامل متعددة سياسية واقتصادية واجتماعية على أن تتحول مدن الحجاز فى العصر الأموى إلى مدن على حظ كبير من الحضارة، فانتشرت فيها العناصر الأجنبية بمزاجها الحضارى

الأجنبى، وارتفعت فيها موجة عالية من الغناء والموسيقا واللهو، وتدفقت فى حجور أبنائها الأموال والثروات، فأخذت حياة القبائل العربية بها تتحول إلى حياة متحضرة مترفة بل ممعنة فى التحضر والترف، وهيأت ظروف البيئة الجديدة، وما تنطوى عليه من حضارة وترف وغنى وفراغ، لظهور مدرسة الحب اللاهى، أو- بعبارة أدق - هيأت لهذه المدرسة أن تحتل مكان الصدارة فى هذا المجتمع الجديد.

فى هذا الوقت الذى كانت مدن الحجاز تتحول فيه هذا التحول الحضارىّ السريع، كانت البادية العربية تعيش فى عزلة نسبية توشك أن تكون امتداداً لعزلتها القديمة فى العصر الجاهلى، مع تطور لم يكن منه بد فى بعض جوانب الحياة كان استجابة لظهور الإسلام وانتشاره فيها. فقد انتشر الإسلام فيها كما انتشر فى سائر أرجاء الجزيرة العربية، واعتنق أهلها الدين الجديد كما اعتنقه سائر العرب، وخرجوا مجاهدين فى سبيل الله كما خرج إخوانهم من سكان المدن.

وكان طبيعاً أن يغير الإسلام من نفوس هؤلاء البدو، ومن مثُلهم الخلقية، كما غير من نفوس غيرهم من سكان المدن ومن مثلهم الخلقية، فقد خلّصهم من روح الجاهلية القديمة، وهذّب من نفوسهم، وأضفى عليها مثاليته

الخلقية، وحثهم على التمسك بأهداب الفضيلة والعفة ومكارم الأخلاق، وأخذهم بشيء من الشدة فى معاملة النفس، وشيء من الرقة والإحسان فى معاملة المرأة حين حفظ عليها إنسانيتها، ورفع من وضعها الاجتماعى والاقتصادى، ونظم ما بينها وبين الرجل من علاقات وبين مالها وما عليها من حقوق وواجبات. ومع ذلك ظلت حياة البدو الاجتماعية فى كثير من جوانبها كما كانت فى العصر الجاهلى، فقد ظلت القبيلة وحدة المجتمع، وظلت حياة الظعن والتنقل والنُّجْعة الطابع العام له والأسلوب الأساسى للعيش فيه، وظلت التقاليد القديمة والعُرْف الموروث تتمتع بالقداسة والاحترام اللذين كانت تتمتع بهما فى العصر القديم، وظلت البادية كما كانت من قبل فى عزلة نسبية عن التيارات التى كانت تتدفع إلى جوارها فى مدن الحجاز، وفى عزلة أكثر من نسبية عن التيارات السياسية التى كانت تصطخب من حولها فى الشام والعراق.

ومعنى هذا أن مجتمع البادية فى هذا العصر تخلص من شيئين: من روح الجاهلية القديمة فى حياته الدينية والخلقية، ومن روح العصر الجديد فى حياته الاجتماعية والسياسية، فخلص له شيئان: الروح الإسلامى الجديد فى بعض جوانب حياته، وروح البداوة الموروث فى بعضها الآخر.

ومن هنا كان طبيعيًا أن تختفى مدرسة الحب الحسى اللاهى القديمة التى مثلها امرؤ القيس والأعشى وأضرابهما، كما كان طبيعيًا أيضاً أن لا تظهر مدرسة الحب الحجازية الجديدة التى مثلها عمر بن أبى ربيعة ومن سار سيرته، لأن العوامل التى هيأت أسباب الظهور للمدرسة القديمة قد اختفت من المجتمع البدوى الجديد، والعوامل التى خلقت المدرسة الجديدة لم تتوافر له كما توافرت لمجتمع المدن الحجازية.

اختفت العوامل التى هيأت للمدرسة القديمة الظهور حين نظم الإسلام العلاقة بين الرجل والمرأة من ناحية، وحين رفع من منزلة المرأة الاجتماعية فحفظ عليها كيانها الخلقى والنفسى من ناحية ثانية، ثم حين قضى على كثير من مظهر اللهو الجاهلية بتحريم الخمر والميسر والعلاقات غير المشروعة التى كانت تعد متع الحياة الجاهلية الأساسية من ناحية ثالثة. وفى الجانب الآخر لم تتوافر للمجتمع البدوى الجديد العوامل التى توافرت لمجتمع المدن الحجازية الجديد، فقد ظل هذا المجتمع محتفظاً بطابعه البدوى القديم، وتقاليده الاجتماعية الموروثة، كما ظل- من الناحية الاقتصادية- مجتمعاً رعويًا كما كان فى العصر القديم، تعتمد الحياة فيه على الرعى، وتسيطر على مستواه الاقتصادى الظروف الطبيعية التى لا يملك لها تغييراً. ثم إلى جانب ذلك ظل- بحكم عزلته التقليدية التى فرضتها عليه البيئة الجغرافية، وبحكم بعده عن الحكومة المركزية فى المدينة أولاً

ثـم فــى دمشـق بعـد ذلـك- بمنـأى عـن الحيـاة الرسـمية فـى والحجاز،وماتنطوى عليه من نشاط سياسى فـى الشام، وكبت سياسـ الحجاز، كما ظل بمنأى عن الاضطراب الثورى العنيف فى العراق.

وكان طبيعيًّا بعد هذا كله أن تظل مدرسـة الحب العفيـف القديمـ مثّلها "المتيمون" المدرسة الأساسية للحب فى المجتمع البدوى، بـل طبيعيًّا أن يتسع مجالها ويمتد نطاقها فتصبح اللون البارز الزاهى من الحب فى هذا المجتمع، والسمة المميزة لأيـة علاقـة عاطفيـة بيـن ا والمرأة فيه، لأن هذا اللون من الحب أصبح المتعة الأساسـية للشبابـ ينفسون به عما يعانون من كبت وحرمان، ويستعيضون به عما حُرمـ وسائل اللهو القديمة التى حال بينهم وبينها الإسلام، ويحققـون بـه و الضائع فى هذه الصحـراء المترامية الأطـراف، دون أن يمـس هـذا الجديد الذى آمنوا به، ولا تقاليدهم البدوية الموروثة التى ظلوا متمسك رغم كل شىء.

ومن هنا كنا نرى أن ظهور مدرسة " العذريين " فى العصر الأمـ يكن بالظاهرة الغريبة التى تستدعى البحث عن اسبابها، فهى- فـى و الصحيح- امتداد لمدرسة "المتيمين" القديمة، أو- بعبارة أخـرى- بعـث المدرسة فى ثوب إسلامى، وهو امتداد أو بعث طبيعى لأنها هـى الـ الطبيعية التى لم يكن هناك بد من ظهورها فى المجتمع البدوى الجديد

هذا الكتاب

* يعد محاولة لإزالة وهم استقر فى أذهـان كثير من الباحثين حول الحب العذرى باعتباره ظـاهرة أموية خالصة منبتة ا[illegible] تماماً مما قبلها.

* ومن ثم فهو يطمح إلى كشف طبيعة حـب البادية العربية فى جميع عصورها، فهو نبت صحراوى أصيل عرفته البادية، وظلت ترعاه، وتمد له فى الأسباب حتى نما وازدهر فى ظل بنى أمية.

* وهو يناقش قضية الأسطورة التى تعمقت أخبار هذا الحب اندفاعا خلف مذهب الشك فى كل مايتصل بتراثنا الأدبى العريق.

عبده غريب

9